



طَلَقَةُ نَوِيرٍ

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

طلقة تنوير 70: المجلة الثقافية للائحة القومي العربي... عدد 1 تموز 2020

محتويات العدد: حرب على العروبة على جبهات الماضي والحاضر والمستقبل

- ما بعد الحصار الاقتصادي: الشق المنحدر من قوس الهيمنة الغربية/ إبراهيم علوش
- نحن والغرب: هل نعرف تاريخنا وتاريخه حقاً؟/ صالح بدروشي
- مصر والنيل: الأولوية الاستراتيجية لمسألة سد النهضة/ بشار شخاترة
- الخطاب الأثري بين التوراة والاستشراق: سرقة الماضي العربي الفلسطيني/ فارس سعادة
- مسألة الصحراء المغربية: عندما يتستر الانفصاليون برداء التقدمية/ عبدالناصر بدروشي
- عن كتاب "الأيديولوجية العربية المعاصرة" للعرابي/ ناجي علوش (1980)
- الصفحة الثقافية: السينما في مواجهة الحرب/ طالب جميل
- قصيدة العدد: أمشي وتأنين/ سليمان العيسى
- الإسكندروني عن عشق اليمن
- رسم العدد: ذكرى ثورة 30 يونيو في مصر

لمتابعنا انظر:

لمتابعنا على فيسبوك، ابحث عن:
لائحة القومي العربي/ الصفحة الرسمية

روابط صديقة:

موقع الصوت العربي الحر
www.freearabvoice.org

راسلنا على:

arab.nationalist.moderator@gmail.com

ما بعد الحصار الاقتصادي: الشق المنحدر من قوس الهيمنة الغربية

إبراهيم علوش

تنبع قدرة الدول الغربية عموماً، والولايات المتحدة خصوصاً، في فرض: أ - العقوبات، ب - الحظر ج - والحصار الاقتصادي، وكل من هذه المصطلحات يمثل درجة أشد من التضيق على كيان سياسي أو دولة ما، من مدى هيمنتها على الاقتصاد العالمي ومدى إمساكها بحلقاته المفصلية. إذ لا تعني أي من تلك الإجراءات العقابية كثيراً إلا بمقدار ما يسيطر من يفرضها على محابس الحركة العابرة للحدود الدولية لـ: أ - السلع والخدمات، ب - رأس المال المالي، ج - والمعلومات والخبرات والتكنولوجيا، وإلا فإنه يعاقب نفسه، ويُخرج اقتصاده من دورة التجارة والاستثمار وتطور العلم والتكنولوجيا في العالم، أكثر بكثير مما يعاقب غيره.

لوحة موازين القوى في الاقتصاد العالمي اليوم

الحال هو أن المنظومة الغربية عموماً، والولايات المتحدة خصوصاً، بمقدار ما تزايد لجوؤها لفرض العقوبات والحظر والحصار الاقتصادي في العقود الفائتة، لا سيما منذ انهيار منظومة الدول الاشتراكية، بمقدار ما راحت تدخل مرحلة الأفلول اقتصادياً وتكنولوجياً وسياسياً وعسكرياً، وهو ما يزعزع الأساس المادي لقدرتها على فرض الإجراءات العقابية أصلاً. فالاقتصاد الأمريكي، كأكبر اقتصاد في العالم، بلغ حجمه عام 2017 ما يعادل 25% من الاقتصاد العالمي، لكنه كان 40% من الاقتصاد العالمي عام 1960، ولو تم تقييم حجم الاقتصاد الأمريكي بالنسبة للاقتصاد الصيني أو غيره بمعادل القوة الشرائية PPP، أي بما يستطيع أن يشتريه اليوان الصيني مثلاً في الصين، وليس في الولايات المتحدة بعد تحويله إلى دولار أمريكي بحسب سعر الصرف الرسمي، فإن الحجم الفعلي للاقتصاد الأمريكي بالنسبة للاقتصاد العالمي ينخفض إلى 15% عام 2019 (انظر مجلة "طلقة تنوير" 66 ص. 14)، وهو الرقم الذي يتوقع أن يشهد انخفاضاً تدريجياً خلال السنوات المقبلة.

كذلك نجد أن الصين باتت تتقدم دول العالم من حيث عدد طلبات تسجيل براءات الاختراع بشأو بعيد، تليها الولايات المتحدة ثم اليابان ثم كوريا الجنوبية (انظر مجلة "طلقة تنوير" 66 ص. 14)، ولعل تفوق الصين في تطوير تقنيات الجيل الخامس من الاتصالات دليل نوعي على تقدمها تكنولوجياً، كما أن حجم الاقتصاد الصيني كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، إذ احتسب بمعادل القوة الشرائية، فإنه بات يبلغ أكثر من 19% عام 2019، وهي نسبة من المتوقع أن تتصاعد.. أضف إلى ذلك أن الناتج المحلي الإجمالي للهند كنسبة من الناتج



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



المحلي الإجمالي العالمي عام 2019، معدلاً بحسب معادل القوة الشرائية، أي بحسب القوة الشرائية للروبية في الهند، بات يقارب 9%، وهكذا..

مرة أخرى، تم حساب هذه النسب بحسب معادل القوة الشرائية، بمعنى أننا لو أخذنا القيم الاسمية (بالأسعار الجارية وأسعار الصرف العالمية) للنتائج المحلي الإجمالي، فإن النسب السابقة ستبدو أكبر قليلاً بالنسبة للولايات المتحدة، وأقل قليلاً بالنسبة للصين والهند، مع ثبات الاتجاهين الزمنيين، التصاعدي بالنسبة لحجم الناتج المحلي الإجمالي للصين والهند، والتنازلي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، حتى على صعيد القيم الاسمية للنتائج المحلي الإجمالي لكل من الصين والهند والولايات المتحدة.

لكن الحديث عن بداية أفول اقتصادي وسياسي وعسكري غربي عموماً، وأمريكي خصوصاً، لا يعني أن الموازين العالمية قد انقلبت بعد، إنما يمر عالمنا اليوم بمرحلة انتقالية حرجية، تؤذن بالتحول إلى التعددية القطبية، وبأفول الهيمنة الأمريكية، من دون أن يعني ذلك أن التحول قد تحقق، وأن الهيمنة الأمريكية انتهت.

على العكس تماماً، تشدد الصراعات، أكثر ما تشدد، في مراحل الانتقال والتحول من نظام دولي إلى آخر، مع محاولة القوى السائدة التمسك بهيمنتها والدفاع عنها بأظافر وأسنانها، ومحاولة القوى الصاعدة أن تطيح بتلك الهيمنة لتؤسس نظاماً بديلاً لا بد من أن يقود تعدد أقطابه وتمييع مركزيته الغربية عموماً، والأمريكية خصوصاً، إلى خلق شروط أفضل لانفلات الأمم والشعوب من ربقة الهيمنة والسيطرة الإمبريالية، ولإعادة بناء علاقاتها على أسس أكثر تكافؤاً، سوى أن العالم لما يصل بعد إلى مثل تلك المرحلة..

الواقع هو أن الهيمنة الأمريكية، بالرغم من ابتداء أفولها، وعلى الرغم من انحسار قدرتها على ممارسة الاحتلال العسكري المباشر والمطول، لما تزل تمتلك الكثير من الأوراق في جعبتها، فالولايات المتحدة الأمريكية وحدها ما تزال تمثل، بالأسعار الجارية، أكثر من 23% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي عام 2019، أي أنها ما تزال أكبر سوق في العالم، لا سيما أن واردتها من السلع والخدمات تبلغ أكثر من 15% من ناتجها المحلي الإجمالي المقدر بحوالي 22 ترليون دولار عام 2020، أي أن واردتها تبلغ حوالي 3 ترليون و370 مليار دولار، وهو ما يجعلها أكبر سوق للواردات الأجنبية في العالم، وبالتالي فإن إقفال السوق الأمريكية في وجه أي بلد أو شركة في العالم ما برح عقاباً قاسياً، بيد أنه لم يعد بالقسوة ذاتها كما كان قبل عقد أو عقدين مثلاً، مع ازدياد حجم اقتصادات الدول الصاعدة مثل الصين (ثاني اقتصاد في العالم بالقيمة الاسمية) والهند (خامس اقتصاد في العالم) والبرازيل (تاسع اقتصاد في العالم) وواردتها التي تبلغ حوالي 19% من الناتج المحلي الإجمالي بالنسبة للصين، وحوالي 24% من الناتج المحلي الإجمالي للهند، وحوالي 15% من الناتج المحلي الإجمالي للبرازيل.

لكن المسألة لا تتعلق بالولايات المتحدة وحدها، بل بالمنظومة الغربية برمتها، والمقصود بالمنظومة الغربية هو الدول الغربية وتلك التي تدور في فلكها سياسياً واقتصادياً، ولو لم تقع في الغرب، وتتضوي تلك المنظومة رسمياً تحت مظلة «منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية» OECD countries التي تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك وكولومبيا وتشيلي في القارة الأمريكية، وكل الدول الأوروبية الغربية، داخل السوق الأوروبية المشتركة وخارجها، والعديد من الدول الأوروبية الشرقية، بالإضافة إلى أستراليا ونيوزيلندا واليابان وكوريا الجنوبية، والكيان الصهيوني طبعاً وتركيا.

تلك هي الكتلة الاقتصادية-السياسية هي التي تمثل المنظومة الغربية فعلياً، وقد مثلت حوالي 62% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي عام 2018، وحوالي 72% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي عام 2008، وحوالي 82% منه عام 1998.. والعبرة واضحة: إن حجم كتلة الـ OECD كنسبة من الحجم العالمي يتقلص، ويزيد ذلك التقلص بروزاً أن حجم

تلك الكتلة الفعلية يصبح 42% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي فحسب عام 2018 لو حسبناه بمعادل القوة الشرائية، والحبلى على الجرار..

غير أن تلك المنظومة الغربية OECD ما تزال الكتلة المهيمنة اسمياً في الاقتصاد العالمي حتى اليوم، كما أنها ما تزال الكتلة الأكبر نسبياً في الاقتصاد العالمي من الناحية الفعلية مقارنة بأي كتلة أخرى بالرغم من مسارها العام الهابط، باستثناء كوريا الجنوبية التي تصعد بشكل صاروخي تتنافس فيه مع روسيا على موقع عاشر أكبر اقتصاد عالمي..

وإذا أخذنا مجموعة دول البريكس وحدها (الصين وروسيا والهند والبرازيل وجنوب إفريقيا) مثلاً، سنجد أن اقتصاداتها مثلت معاً 23% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي عام 2018 بالقيم الاسمية، و32% منه بحسب معادل القوة الشرائية، ونسوق هذه الإحصائية الدالة مع أن مقارنة الناتج الإجمالي لدول البريكس الخمس بمنظومة الدول الغربية الـ37 مجتمعة فيه شيء من التعسف إن لم نأخذ بعين الاعتبار اقتصادات الدول الأخرى الصاعدة بقوة، كأندونيسيا مثلاً، أو الدول المنضوية في منظمة شنغهاي للتعاون، مثل باكستان، أو دول الاتحاد الأوراسي مثل كازخستان وروسيا البيضاء (بيلاروس).

وعلى الرغم من أن الحجم الاقتصادي الفعلي لدول البريكس أكبر من حجمها الاسمي، ومن أن الحجم الاقتصادي الفعلي لدول المنظومة الغربية أصغر من حجمها الاسمي، ومن أن الغرب يغرب، ومن أن الشرق والجنوب يشرقان، فإن الواقع هو أن تلك السيرة لم تكمل نصفها الأول بعد، كما أن الغرب لن يقف مكتوف الأيدي ريثما تكتمل، ومن البديهي أن يلجأ لكل وسيلة قذرة، أو "ناعمة" أقذر، لعرقلة، على ما نرى.

نقطة الانقلاب: اختراق الصين لمشروع العولمة الرأسمالية

فلنعترف أولاً أن صيرورة العولمة التي سادت التوقعات في نهاية الألفية الثانية، قبل أكثر من عشرين عاماً، بأنها ستنتهي إلى هيمنة إمبريالية شاملة على مقدرات الشعوب والأرض، لم تجر رياحها كما اشتهت سفن الغرب، وأن الصين تمكنت من اختراق مشروع العولمة الرأسمالية بجدارة، وأن تياراً يزداد قوة في الدول الغربية، لعل الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أبرز ممثليه، باتت تحركه ردة فعل حادة إزاء العولمة باتجاه النزعة الحمائية والتفوق القومي انطلاقاً من فرضية انقلاب العولمة ضد الغرب ودوله.

لا يعني ذلك طبعاً أن العولمة، كما دفعت باتجاهها الشركات متعددة الحدود منذ عقود، وبما تمثله العولمة من تجاوز لسيادة الدول ومن تفكيك للهوية القومية ومن استباحة لكل الحدود، كانت شيئاً رائعاً بالنسبة للشعوب والأمم... على العكس تماماً، إنه يعني أن من امتلك مشروعاً قومياً وقاعدة قومية يستند إليهما، ومن امتلك في الآن عينه رؤية عالمية تتيح له أن يكون جزءاً فاعلاً متفاعلاً مع الاقتصاد العالمي من دون أن يسمح للشركات متعددة الحدود أن تخترقه وتسيطر عليه وتخضعه، هو الذي تمكن من أن يواجه العولمة ويخضعها لشروطه، ومن أن يجعلها تعمل لمصلحته القومية ومن أن يقلبها على رأس من أطلقها عليه.

النموذج الصيني، أي نموذج الدولة المركزية والتخطيط الشامل الذي يعطي القطاع الخاص دوراً فاعلاً ومركزياً ضمن الخطة القومية العامة، هو النموذج الذي أثبت ذاته في مواجهة العولمة عموماً، وفي مواجهة الغرب خصوصاً، وهذا الدرس الأيديولوجي، وهو درس أيديولوجي قاس في المحصلة، كيفما قلبنا الأمر، لكل من روج للخصخصة الشاملة وإلغاء دور الدولة في الاقتصاد وتسليم أعباء الشركات الأجنبية، هو الذي باتت جاذبيته العالمية ترعب عتاة الرأسمالية في الغرب حتى ممن ارتدوا عن مقولة العولمة إلى حصون الماركنتيلية والرأسمالية القومية السابقة للعولمة لأنه في جوهره درس عمليّ مناهض للرأسمالية، سواء كانت معلومة أم غير معلومة.

كما أن مثل هذا الدرس مهم من الناحية العملية اليوم، لا من الناحية الأيديولوجية فحسب، لأن مواجهة الحروب الاقتصادية التي يشنها الغرب دفاعاً عن هيمنته يطرح بقوة أيضاً لا مسألة دور الدولة في الاقتصاد من الناحية النظرية فحسب، بل دور الدولة والتخطيط المركزي في مواجهة حروب الاقتصاد هنا والآن، إذ ليس من المنطقي أن نواجه الهجمة الغربية بأدوات فشلت تنموياً في السلم،



لجنة القومى العربى

العدد رقم (70) صدر فى 1 تموز عام 2020 للميلاد

ومن المحتتم بالتالى أن تفشل أكثر فى تحقيق الأمن الاقتصادى فى الحرب أو فى تحقيق النصر فى حروب ذات طبيعة اقتصادية أساساً، ولهذا فإن تكريس دور الدولة فى الاقتصاد، ودور التخطيط المركزى فى توزيع الأدوار بين القطاع العام والقطاع الخاص والقطاع الثالث (غير الربحى)، بات أحد أهم شروط مواجهة الحروب الاقتصادية التى تشنها الإمبريالية لإخضاع الأمم والشعوب المستقلة. وما سيسفر عنه ذلك هو فسيفساء من الأنظمة الاقتصادية-الاجتماعية التى تتراوح بين رأسمالية الدولة والاشتراكية، أما تفكيك الدولة وإحلال رأسمالية معولمة مفككة لا منتمية قومياً محلها فقد بات موضع تشكيك كبير من حيث جدواه، ويمكن أن نقول إنه فقد بريقه على الأقل، وهو الدرس الذى رسخته أزمة وباء الكورونا أيضاً.

منظومة «سويفت» SWIFT الغربية لتحويل الأموال وبدائلها الصاعدة

لعل إحدى مميزات الردة المتصاعدة فى منظومة الدول الغربية عن مشروع العولمة ذاته، من منظورها كشعوب، هو بدء تفكك قدرتها على العمل كمنظومة واحدة متماسكة، بمقدار ما يترسخ ارتداد الدول الغربية إلى قواعدها القومية، وبمقدار ما يترسخ اتجاه ترامب فى سحب الولايات المتحدة من المنظمات والأحلاف الدولية.

لنلاحظ هنا مثلاً الخلاف الذى نشب بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا مع الإدارة الأمريكية بعد انسحاب الأخيرة من الاتفاق النووى مع إيران عام 2018، وكيف أنشأ الأوروبيون فى مستهل عام 2019 منظومة «انستكس» Instex لعقد المقايضات مع إيران خارج نطاق منظومة «سويفت» SWIFT ومن دون التعامل بالدولار الأمريكى. وعلى الرغم من أن المنظومة الأوروبية البديلة لـ«سويفت» للتعامل مع إيران لم يتم تفعيلها بعد عام من تأسيسها، بسبب التهديدات الأمريكية أساساً، حتى تاريخ 31/3/2020 عندما تم استعمالها لإرسال معدات طبية إلى إيران لمكافحة وباء الكورونا، فإن دولاً أوروبية عديدة انضمت لآلية «انستكس» خلال هذه الفترة، كما أن سابقة خطيرة كانت قد تأسست، فى وقت كان يشكو فيه الأوروبيون من أنهم لم يساندوا بعضهم بعضاً فى مواجهة الوباء، وهى إقامة منظومة منافسة لـ«سويفت» فعلياً.

رب قائل إن تأسيس الأوروبيين لآلية «انستكس» لا يعكس بالضرورة انشقاقاً أوروبياً عن الإدارة الأمريكية بمقدار ما يعكس خلافاً داخل النخبة الحاكمة الأمريكية ذاتها بين داع ومعترض على الانسحاب من الاتفاق النووى مع إيران، ولعل هذا من العوامل التى سهلت قيام الأوروبيين بخطوة إنشاء منظومة «انستكس»، غير أن الخلاف حول الاتفاق النووى مع إيران يصغر بمقارنة بإضعاف هيمنة منظومة «سويفت» على حركة تحويل الأموال عبر الحدود.

منظومة «سويفت» بالمناسبة هى منظومة أوروبية بالأساس مقرها فى بروكسل، بلجيكا، يقول موقعها على الإنترنت إن أكثر من 11 ألف مؤسسة مالية حول العالم ترتبط بها، فهى بلا منازع الشبكة الأساسية لإيصال رسائل تحويل الأموال من مؤسسة مصرفية إلى أخرى، ولكن من الضرورى الانتباه إلى أن «سويفت» هى مجرد شبكة اتصالات مالية ومصرفية، فهى تقوم بتوصيل أوامر تحويل الأموال من مؤسسة إلى أخرى، لكنها لا تحول الأموال بذاتها، وعلى الجهات المصرفية المرسل والمستقبل لأوامر التحويل والصرف أن تخلص تلك الأوامر فيما بينها، فـ«سويفت» لا تحتفظ بأموال لربائنها، بل هى منظومة تواصل مصرفى عابر للحدود فحسب، وهى متصلة بمنظومة أخرى اسمها CHIPS هى التى تغربل أوامر التحويل والصرف وتمرها، بالدولار الأمريكى طبعاً، فمن المهم الانتباه إلى أن منظومة «سويفت» مرتبطة عضوياً بالتعامل بالدولار الأمريكى، وبالتالي مرتبطة بتكريس هيمنته على التعاملات الدولية.

منظومة «سويفت» المالية أشبه بشبكة «فيسبوك» إذ، أو «تويتر»، إلخ... فى فضاء التواصل الاجتماعى، وهى شبكة أوروبية، لكن الأجهزة الأمنية الأمريكية تفرض سيطرتها عليها، وتسيطر الولايات المتحدة وحلفاؤها على مجلس إدارتها، وهو ما سبب احتكاكاً عالياً مع البرلمان الأوروبي فى الأعوام 2009-2011. وقوة منظومة «سويفت»، مثل أى شبكة تواصل، تنبع من عدد المشتركين فيها، فقيمة شبكة «فيسبوك» مثلاً تنبع من وجود أكثر من مليارين و600 مليون مشترك فيها، وهو ما يعطى المشترك فى «فيسبوك» إمكانية للوصول لعدد أكبر بكثير من الناس مما لو انضم إلى شبكة تواصل اجتماعى تضم بضعة آلاف من المشتركين فحسب على سبيل المثال... وكثرة عدد المشتركين هو بالضبط ما يجعل القيمة الرأسمالية لشركة «فيسبوك»، أى مجموع قيمة أسهمها فى السوق المالى، أكثر من 666 مليار دولار عند لحظة كتابة هذه السطور، أى 256\$ أمريكى تقريباً لكل مشترك، لو قسمنا قيمة الشركة على عدد مشتركها، وهو ما يجب أن يتذكره من يتعرضون للحظر والعقوبات والحجب إلخ.. على فيسبوك، إذ أن كل واحد منا



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



يضيف، بحسب سعر اليوم (القابل للتغير طبعاً) \$256 للقيمة الرأسمالية لشركة أخينيا مارك...، فربما يبدو إنشاء حساب فيسبوك "مجانياً"، ولكن "ليس هناك من شيء مجاني في الحياة"، كما كان يحب أن يكرر أساتذتي في علم الاقتصاد.

تلك هي سمات الرأسمالية العابرة للحدود في مرحلتها الإلكترونية: استئلال أرباح مهولة وسيطرة احتكارية ونفوذ سياسي في الفضاء الحقيقي استناداً للسيطرة على الفضاء الافتراضي برمجيّاً. كذلك الأمر بالنسبة لمنظومة "سويفت" لتحويل الأموال التي تزداد أهميتها بازدياد عدد المؤسسات المصرفية والمالية المتصلة بها، ولهذا يصبح إخراج أي مؤسسة مالية أو مصرفية من تلك المنظومة برمجيّاً يعادل "حظراً مالياً"، يشابه الحظر الاجتماعي الذي يفرضه "فيسبوك" برمجيّاً على المخالفين لـ "معايير المجتمع" (الصهيونية)، والواقع هو أن قوة منظومة "سويفت"، مثل قوة "فيسبوك"، هي قوة مستمدة من كثرة عدد المشتركين الذين يصبح كلّ منهم كأنه منفى من جنة عدن خارجها.

ثمة دول، مثل إيران وسورية، ومئات المصارف، محرومة من التعامل عبر منظومة "سويفت" برمجيّاً اليوم، وهذا يعني عدم إمكانية تحويل الأموال منها وإليها، مما يعيق التجارة والاستثمار فيها ويخنق اقتصادها، وبالتالي فإن إيجاد بديل عن "سويفت" بات استحقاقاً لا مندوحة عنه في زماننا المعاصر.. لا بد من بدائل إذاً، وحتى تنجح تلك البدائل، لا بد من أن تضم كثرة كبيرة، وحتى يحدث ذلك، لا بد من روافع كبرى لها، سياسية واقتصادية ومالية وثقافية، ولهذا فإن بدائل لشبكة "سويفت" بدأت تذر بقرنها على المسرح، ومنها:

1 - منظومة Ripple التي تأسست عام 2012، وهي منظومة أمريكية متخصصة بتحويل العملات الإلكترونية، ولكنها توسعت إلى ما هو أبعد منها مثل تحويل دقائق الهاتف النقال و"الأميال المجانية" للمسافرين جواً والمتاجرة بالسلع الأساسية commodities، والدافع لتأسيس مثل هذه المنظومة هو التطور التكنولوجي ذاته، الذي لم تعد "سويفت" تفي بحاجاته. وميزة هذه المنظومة أنها تستخدم برمجيات "المصدر المفتوح" Open Source، بما يتيح قدراً ما من تجاوز الرقابة تعمل الأجهزة الأمريكية بشكلٍ حثيثٍ على إغلاقه، كما أنها تستخدم عملات متعددة، ولا ترتبط بالدولار فحسب.

2 - منظومة Instex، وهي منظومة أوروبية تأسست عام 2019 متخصصة بالتعامل مع إيران بعملات غير الدولار، وهو تطور خطير، بغض النظر عن إيران، أثار حفيظة الولايات المتحدة بشدة، بسبب فتح قناة للتعامل بغير الدولار الأمريكي عالمياً، ومن خارج "سويفت".

3 - منظومة CIPS الصينية، ومقرها في شنغهاي، وقد بدأت بشكل تجريبي عام 2015، ثم توسعت لتشمل 47 بلداً ومنطقة، وهي تتعامل باليوان الصيني. وبالطريقة الصينية التقليدية الهادئة، تعاقبت المنظومة الصينية مع "سويفت" عام 2016 لتسهيل عملياتها! ولم تندفع المنظومة الصينية فوراً باتجاه تحويل رؤوس أموال كبرى عبرها.. ولعل ذلك أشعر "سويفت" ببعض الطمأنينة، حتى بدأ وضع بعض البنوك الصينية خارج "سويفت" بسبب تعاملها مع إيران أو كوريا الشمالية، وهنا بدأ تفعيل المنظومة الصينية بشكلٍ مدرّسٍ وتدرّجي على نطاق أوسع قليلاً، وبدأت "سويفت" تشعر ببعض الألم...

4 - منظومة SPFS الروسية، وقد بدأ تطويرها بعدما هددت الإدارة الأمريكية بحظر روسيا بأكملها من منظومة "سويفت" عام 2014 بعد أزمة شبه جزيرة القرم، ولم تنطلق فعلياً حتى نهاية عام 2017، وهي تعد أقل تطوراً من الناحية التقنية من منظومة "سويفت"، ولكن الروس أكثر وضوحاً ومباشرة ونشاطاً في الترويج لها كبديل لـ "سويفت"، وهم يسعون لربطها بالمنظومة الصينية، وبدول "البريكس" وإيران وتركيا.



لأمانة القومية العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

نظرياً، لا يوجد شيء يمنع إقامة منظومة تحويل أموال بين مجموعة من الدول خارج نطاق منظومة الـ"سويفت" الغربية، ومع صيف عام 2019، بات يمر عبر المنظومتين الصينية والروسية عشرة بالمئة من التحويلات الدولية بحسب أحد المواقع الروسية، وهي نسبة لم يتم التأكد منها من مصادر أخرى، ولكن من المنطقي التوقع، مع ازدياد التناقض بين الحجم الاقتصادي للقوى الصاعدة دولياً وإقليمياً، من جهة، وبين منظومة العلاقات مثل "سويفت" (وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي) التي تركز هيمنة الولايات المتحدة والدولار الأمريكي مؤسسياً، من جهة أخرى، أن تنشأ مؤسسات جديدة، بديلة، للمؤسسات السائدة، تعبر عن تغير ميزان القوى الاقتصادي في عالمنا المعاصر، ومثل تلك المؤسسات، أو قنوات التبادل البديلة، ستجعل تدريجياً من محاولة الغرب فرض عقوبات أو حظر أو حصار على الدول التي لا تدور في فلكه أقل فأقل أثراً حتى تصبح تمريناً في المازوشية الاقتصادية بالنسبة إليه، وعندها سننتقل إلى معادلة تعددية القطبية...

حديث عتيق لكون جديد

لكننا ما نزال نبعد كثيراً عن تلك النقطة، والقصة ليست قصة قرار أو إرادة سياسية فحسب، إذ أن تداعيل الاقتصاد العالمي وحلفاته يجعل من "فك الارتباط" مع الغرب اقتصادياً ومالياً مدمراً حتى بالنسبة للدول ذات النزعة المستقلة، وهي النقطة التي يستغلها الغرب أصلاً لفرض العقوبات والحظر والعقوبات. ففوائض الصين التجارية السنوية مثلاً مع الولايات المتحدة والدول الغربية هي ما سمح لها أن تراكم رؤوس الأموال التي وظفتها في الإقلاع في مشروعاتها التنموية الكبيرة القائمة على توزيع الأدوار بين القطاعين العام والخاص، وبين ما هو قومي وما هو دولي. ولنلاحظ أن احتياطات العملة الصعبة لأول عشر دول في العالم في ربيع عام 2020 تتوزع كما يلي:

الصين 3.1 ترليون دولار
اليابان 1.37 ترليون دولار
سويسرا 848 مليار دولار
روسيا 567 مليار دولار
الهند 505 مليار دولار
تاوان (الصين الوطنية) 484.5 مليار دولار
المملكة العربية السعودية 448 مليار دولار
هونغ كونغ 442 مليار دولار
كوريا الجنوبية 407 مليار دولار
البرازيل 346 مليار دولار

وهو ما يكرس فكرة انتقال مركز الثقل الاقتصادي في العالم شرقاً وجنوباً، إذ لا نجد بين العشرة الأولى، باستثناء سويسرا، دولاً غربية، أما الولايات المتحدة الأمريكية فتأتي في المرتبة 21 عالمياً من حيث احتياطاتها من العملات الأجنبية والذهب، بما يعادل 132 مليار دولار في آذار 2020، لأن الدولار الأمريكي هي عملة الاحتياطي العالمية الرئيسية، وهي تستطيع أن تطبع منه ما تشاء، وهذا من علامات هيمنتها العالمية، فهي ليست بحاجة للاحتفاظ بالكثير من الاحتياطات، فيما يحتاج إليه الآخرون.. وهذا طبيعي، ما دام الدولار مهيمناً، وإلا فإنها في مشكلة كبيرة.

تمثل نسبة الدولار الأمريكي، بالمقابل، من مجموع احتياطات العملة الأجنبية في الصين معلومة سرية، تم تقديرها عام 2014 بأنها تقارب الثلثين، وفي صيف العام 2019 كان من المؤكد أن الصين تملك 1.1 ترليون دولار من أدوات الخزينة والسندات الحكومية الأمريكية، أي أنها أكبر دائن في العالم للولايات المتحدة الأمريكية، ولا يضار عها في ذلك إلا اليابان، وبالتالي يمثل انهيار الاقتصاد الأمريكي كارثة كبيرة بالنسبة للصين، حتى أنها حذرة جداً في التخلص من الدولارات الأمريكية بحوزتها حتى لا تنخفض قيمتها فجأة فتتخلف بذلك قيمة احتياطاتها من العملة الصعبة، ومع كل جهودها لتحويل دولاراتها إلى أصول أخرى، لا سيما الذهب، فإن ما تملكه من الذهب يفترض أنه ألفا طن فحسب، لكن مراقبين يتكهنون بأنه 30 ألف طن، أي أكبر احتياطي في العالم قاطبة إذا صح هذا الكلام، ومع الصين، لا يمكن أن يكون المرء متأكداً.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

أما ما هو مؤكد فهو أن رأس المال المالي الدولي، المسيطر على الاستثمار والتجارة والاقتصاد الدولي، بات في أغلبه آسيوياً، صينياً بالتحديد، وقبل 7 أشهر نشرت تقريراً بعنوان "أكبر عشرة بنوك في العالم عام 2019 ثمة أربعة صينية في طليعتها" على الرابط التالي:

<http://www.freearabvoice.org/?p=6228>

واليوم، بعد سبعة أشهر، ازدادت أصول تلك البنوك الصينية وعززت مواقعها، وإذا نظرنا إلى بعض أصول تلك البنوك، مثل بنك الصين الصناعي والتجاري، الذي حل في المرتبة الأولى عالمياً، نجد أنها 4.3 ترليون دولار، وبنك الإنشاءات الصيني تبلغ أصوله 3.8 ترليون دولار، وبنك الصين الزراعي تبلغ أصوله 3.7 ترليون دولار، وبنك الصين المحدود تبلغ أصوله 3.4 ترليون دولار (من الواضح أنه ليس "محدوداً" جداً). ويأتي البنك الأمريكي JP Morgan Chase في المرتبة الخامسة بأصول تبلغ 3.1 ترليون دولار، والبنك البريطاني HSBC في المرتبة السادسة بأصول تبلغ 2.9 ترليون دولار، ومجموعة ميتسوبيشي اليابانية في المرتبة السابعة بأصول تقارب 2.9 ترليون دولار، وBank of America في المرتبة الثامنة بأصول تبلغ 2.6 ترليون دولار، وبنك BNP Paribas الفرنسي في المرتبة التاسعة بأصول تبلغ 2.4 ترليون دولار، وبنك Credit Agricole الفرنسي في المرتبة العاشرة بأصول تقارب 2 ترليون دولار.

فليس من المنطق بشيء أن يفرض البنك الصغير على الكبير قيوداً حول عملياته المصرفية وتحويلات، ولذلك فإن منطق الأمور يؤول إلى أفول منظومة "سويفت" وصعود المنظومات البديلة. لكن الصينيين ليسوا من النوع المتسرع. فإن كانوا في صدارة البنوك العالمية، فإن أول عشرين مصرفاً في العالم، بعد المواقع الأربعة الأولى التي تحتلها الصين، ما تزال أمريكية أو أوروبية أو يابانية، وأول مئة مصرف في العالم عام 2020 لا تملك الصين إلا 18 منها، وبقيتها أمريكية أو أوروبية أو يابانية، وما عدا ذلك فإن 6 منها كورية جنوبية، و4 برازيلية، و3 سنغافورية، وواحد هندي، وواحد روسي، وواحد تايواني.

وإذا اعتبرنا أن سنغافورة وتايوان وكوريا الجنوبية تدور في الفلك الغربي، فإن ذلك يعني أن 75% من بنوك العالم من أول 100 بنك في العالم تدور في الفلك الغربي، ولو جمعنا قيمة أصول تلك البنوك، سنجد أنها أكبر من أصول البنوك الصينية الأربعة الأولى مجتمعة بكثير. وفي الواقع، لو جمعنا قيمة أصول البنوك التي تدور في الفلك الغربي من المرتبة 5 حتى المرتبة 20 فحسب سنجد أنها أكبر من أصول البنوك الصينية الأربعة الأولى. وهذا يعني أن ميزان رأس المال المالي الدولي ما يزال يميل لمصلحة البنوك التي تدور في الفلك الغربي حتى اللحظة، وإن كان هذا ليس الاتجاه الصاعد. لذلك فإن تأخير المواجهة، من المنظور الصيني، هو الخيار الحصيف من المنظور الاستراتيجي، حتى لو كان عامل الوقت عاملاً ضاعطاً بشدة عند الدول المحاصرة مثل كوريا الشمالية وكوبا وفنزويلا وإيران وسورية وغيرها. الأمر الجيد، من منظور الدول المحاصرة، هو أن الإدارة الأمريكية اختارت تصعيد المواجهة مع الصين وروسيا وحلفائهما من البوابة الاقتصادية بالذات، وبمقدار ما ستحاول الصين امتصاص تلك الهجمة، فإن الغرب مصمم على ألا يتركها تبني ذاتها بهدوء كما فعلت في العقود الأخيرة.

لكن لا يمكن ترك الأمور رهناً بما تقررره الصين وروسيا فحسب، مع كل الاحترام والتقدير، إذ لا بد من أن تتخبط الدول المحاصرة، والدول الحريصة على استقلالها، في تأسيس منظومة تحويل مالية خاصة بها أسوة بـ"سويفت" وما يعادلها، وبعملات غير الدولار الأمريكي، ولا بد لها من أن تنشئ إطاراً للتبادل التجاري والنشاط الاستثماري خارج إطار الهيمنة الغربية يمكن أن يشكل نواةً لنظام اقتصادي دولي بديل، كما كان فيديل كاسترو يدعو دوماً، سوف يحفز الصين وروسيا في المحصلة على إعطاء تلك الدول وزناً أكبر في حساباتهما، ويساعد الدول المحاصرة والحريصة على استقلالها على التحرر من بعض الاعتبارات الدولية/ الغربية التي تضطر الصين وروسيا إلى مراعاتها بحكم حاجتهما إلى إبقاء الخيوط ممدودة مع الغرب، فيما الدول المحاصرة تجاوزت تلك المرحلة بأمَد بعيد، ولذلك فإن عليها أن تفكر بخطوات أكثر جذرية بوتيرة أسرع لأنها في حالة صدامٍ مباشر مع الغرب بجميع الأحوال.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

نحن والغرب: هل نعرف تاريخنا وتاريخه حقاً؟

صالح بدروشي

إذا كان التاريخ مصطلحاً شاملاً يتعلق بدراسة الأحداث الماضية ومسبباتها وانعكاساتها، فإن الكثير من المؤرخين يرون أن فائدة دراسة التاريخ تكمن في توفير رؤية تساعد في حل مشكلات الحاضر. كذلك فإن تاريخ الأمم هو عمقها الاستراتيجي الذي تستند إليه في صناعة مجدها في الحاضر والمستقبل.

إلا أن بعض المؤرخين والباحثين يعمدون إلى استخدام تاريخ الأمة وماضيها في طمس وشطب حاضرها ومستقبلها، وهذا ديدن الثقافة الإمبريالية الغربية تجاه الشعوب المستقلة والأمة التي تؤمن بالأخلاق والمبادئ الإنسانية السمة.

إن من أخطر الآثار السلبية لمرحلة الاحتلال المباشر المسمى زوراً "استعمار"، وهو في الواقع استعمار، وما أكمّله مرحلة الهيمنة الإمبريالية على مجتمعات الدول الخاضعة لها، هو تأثيرها على عدد من النخب المتعلمة ومن تعودنا أن نسميهم أشباه المثقفين العرب لشدة انفصالهم عن واقع متطلبات وطنهم ومعاناة أمّتهم واصطفاهم إلى جانب مقولات ونظريات أعداء شعبهم لانهارهم بما يرونه تفوقاً وتقدماً حضارياً جعلهم يجتهدون ويمعنون البحث في بطون كتب التاريخ سعياً لاستخراج "أدلة" تثبت أن تاريخنا لم يكن مليئاً بالأمجاد، ليستنتجوا بـ "عبقريتهم" التي صقلها الغرب الإمبريالي وطبعها بالحق على ماضي أمّتهم، بأن التخلف والهمجية والدموية هي أبرز منتجات الحضارة العربية.

لا ضير في مراجعة التاريخ لأخذ العبر، ولكن نخبنا المأجورة، بكل أسف، عبر مراكز الدراسات الممولة بسخاء، تقلّب صفحات تاريخنا العريق لتستخرج منه ما يساعد أعداءنا على كسر أنفة العربي وقتل إحساسه بالعزة القومية، وتحويل شموخ الإنسان العربي إلى انكسار، وهي تدفعه لجلد ذاته جلدأ مازوشياً يؤرثه احتقاراً لذاته ولأسلافه بدل الاعتداد بنفسه وإبرائه ليبني على أمجاد أجداده وينطلق من جديد نحو الأفضل.

فتراهم ينقّبون في صفحات التاريخ لإقناعنا بأننا أسوأ أمة أخرجت للناس، ولو رفعوا رؤوسهم قليلاً لينظروا إلى الحاضر والماضي القريب بالعين المجردة، لعلموا بأن الصفحات المظلمة في تاريخنا العربي وفي تاريخ شعوب الأرض مجتمعة لا تعد قطرة في بحر سواد حاضر الحضارة الغربية من دون الحاجة إلى النبش في "عصور الظلمات"، حين كان الرجل الغربي يتخبط في الجهل والتخلف فيما كان تشع شمس حضارتنا على الدنيا.

لا نحتاج إلى عبقرية أو بحث مطوّل لنكتشف أن الرجل الغربي أباد شعوباً بأكملها ليستوطن أرضها، وأنه أسس إمبراطوريات عنصرية "لا تغيب عنها الشمس" لحقت أذى جرائمها أغلب شعوب الأرض...

وأن هذا الرجل الغربي أبحر إلى إفريقيا لاصطياد البشر وحملهم مقيدون في أقفاص عبر المحيطات لخدمته...

يكفي أن تطلب شهادة أي شيخ عربي مُسنّ ليخبرك عن القوة العسكرية الفرنسية الغاشمة التي قتلت ملايين العرب وارتكبت مجازر إبادة في إفريقيا، خمسة وأربعون ألفاً قتلهم فرنسا في يوم واحد في مدينة واحدة في الجزائر، مدينة صطيف...

لست بحاجة لأن تكون متخصصاً في التاريخ، إذ يكفي أن تسأل أي شيخ عربي ليروي لك كيف مكّن الرجل الغربي حثالات اليهود من استيطان أرضنا وتذبيح شعبنا في فلسطين.. إسأل أي شابٍ عربي وسيخبرك كيف مكّن الرجل الغربي أراذلنا من التحكم في رقابنا، وسخرهم للهيمنة على مقدراتنا.

بكسة زرّ على محرك بحث يمكن أن ترى كيف وضع الغربيون خارطة وطننا فوق طاولة واجتمعوا علينا كما يجتمع الأكلة على وليمة دسمة فمزقونا إلى أشلاء وتخاصموا على نصيب كلٍ منهم.

لعل أبرز صورة عن آخر ما أنتجته الحضارة الغربية تتجلى في قتل أكثر من مليون عراقي وتخريب العراق وسرقة متاحفه ونقل آثاره إلى متاحف أوروبية وأمريكية.

يدرك العارفون أن مراكز البحث العلمي الأمريكية والغربية تعجّ بالعرب والأفارقة الذين لم يجدوا بنية تحتية في دولهم التي خربها الاحتلال الغربي، وحتى مع انعدام الموارد فإن عبقرية العقل العربي لم تنطفئ وبقيت تقدم للبشرية من منابر الغرب وجامعاته.

لسنا ضد البحث العلمي والتدقيق في التاريخ، ولسنا ضد النقد من حيث المبدأ، إلا أن الأبحاث يجب أن تصب في خدمة نهضة الأمة، وفي مرحلة مثل التي تمر بها أمتنا، وعندما يسعى أعداؤنا لشطب هويتنا وتمزيق وطننا وتحويلنا إلى توابع لهم يصبح كل جهد يصب في خانة كسر شخصية العربي مشبوهاً يخدم أجندة أعداء الأمة، ففي مرحلة مثل التي نمرّ بها نحن بحاجة لأن نستخرج من التاريخ كل ما يدعم اعتداد العرب بأنفسهم وأسلافهم وتاريخهم وما يدفعهم للتقدم والنهوض وما يحول بين دخولنا في حالة من "التيه"، والوهن والانبطاح للغرب.

ما نحتاج إلى معرفته اليوم كعرب هو أن السواد الذي تلتحف به الحضارة الغربية يفوق كل خيال، وأن إشراق حضارتنا وأمجادها كفيلة بأن تثير مشارق الأرض ومغاربها.

ما نحتاج لإبرازه هو أن المثال والنموذج الذي يجب أن نحذوه موجود في تراثنا وإرثنا الحضاري، وليس عند الغربي الهمجي الذي تفنّن في إبداع أساليب العدوان والإجرام وسفك الدماء وسرقة الشعوب وتحطيم الحضارات.

لا يفوتنا ذكر لصوص المعرفة الذين كانوا يشتغلون تحت غطاء حركة الاستشراق سابقاً، واليوم تحت يافطة مراكز الأبحاث التي يؤجّرون فيها أناساً من بني جلدتنا بكلّ أسف تحت عنوان "خبراء دوليين" ينهلون من منابع الرواية الإمبريالية ويعممونها.

من يتساءل: ماذا قدمنا للإنسانية؟ نحيله إلى كتب التاريخ والموسوعات العالمية ليطلع عن عطائنا الذي يمتدّ من الماضي في مجالات الرياضيات، الخوارزميات، الجبر، البصريات، الكيمياء، الطب، علم الفلك والصناعة والزراعة، ولم يتوقف هذا العطاء حتى في الحاضر ونحن في أسوأ أيامنا. وسوف تقتصر في ما يلي على ذكر بعض الشواهد التاريخية الحقيقية التي تنزع القناع وتزيل المساحيق لتكشف حقيقة الوجه الإنساني والحضاري المزيف للغرب وحضارته المسوّقة لدى شبابنا وعبر بعض مثقفيها.

كانت فرنسا تشكّل نموذجاً أوروبياً لتواطؤ الكنيسة مع العرش الملكي، فهي تمنح الملك الشرعية وهو بالمقابل يخصّ رجالها بالامتيازات، وكان إنتاج المعارف والعلوم يمرّ حصراً بالكنيسة التي كانت تحاصر بقوة كلّ من يحاول إخراج العلوم والمعارف عن الكتب والعلوم الدينية الكنسية، وكل من يخرج عن هذا النهج يُعتبر مارقاً ويُتهم بالهرطقة، وقد يصل الأمر إلى إعدامه.

ولما ضاق الفلاسفة والمفكرون الأوروبيون ذرعاً بهذه الظلمات التي تفرضها عليهم الكنيسة التي كانت ترفض وتبطل بكل من يتبع منهج أسئلة الشك، وقد تزامن ذلك مع ما حدث لابن رشد على إثر نشاطه الفلسفي الغزير حيث تمّ عزله من منصبه بقرطبة ونفي وأحرقت بعض كتبه، ووقع تهريب بعضها الآخر وترجمت سرّاً إلى اللاتينية فتلقفتها شخصيات ممّن أناروا دروب المعرفة الأوروبية مثل الطلبة الشغوفين بالمعرفة والمتأثرين بأفكار الفيلسوف والقاضي العربي ابن رشد، حينها بدأت فلسفة ابن رشد تدرّس خلسة في الأقبية خوفاً من بطش الكنيسة التي تحرّم بقوة دراسة العلوم والفلسفة...



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

وعندما وصلت هذه الكتب إلى "السوربون" وانبهر بها الطلاب هناك، تكوّنت مجموعة من الطليعيين يسمون "الرشديين اللاتينيين" وأصبحوا يستدلّون بأفكار ابن رشد في جميع العلوم، ومن بينها قوله بأن الوصول إلى الحقيقة يتم عبر دربين متباينين مختلفين: درب الفلسفة ودرب الدين، وقد جعل اتباع هذه المناهج أوروبا تتعم بالأنوار العلمية وتحقق نهضة تنويرية بعيداً عن إعدامات محاكم العصور الوسطى وأنتج ذلك ما يعرف بالرشدية-اللاتينية التي أسسها أتباع ابن رشد في الغرب، وإخفاء ذلك، جُحوداً منهم، قاموا بترجمة اسم ابن رشد بـ: "أفيرويس" Averroès .. !!

أما عن العالم العربي الفيزيائي ابن الهيثم فقد تم تجاهله تماماً ونسبت نظرياته في علم البصريات إلى ديكارت، وتدرّس اليوم للتلاميذ العرب على أنها "قوانين ديكارت للبصريات"، وبعض الكتب تشير إضافة بين هلالين إلى أنها في الأصل من اكتشاف ابن الهيثم! ومن يريد التوسع في هذا المجال فالأمثلة عن السرقات لا تحصى ولا تعدّ في مختلف مجالات العلوم والاختراعات الصناعية...

وأكبر دليل على ثقافة السرقة والنهب التي أبدع فيها الرجل الأبيض هي وجود آثارنا في متاحفهم بعدما سطوا عليها وسرقوها خلال احتلالهم لوطننا، فالعالم أجمع يعلم أن أشهر متاحف الغرب تنزّين بآثار العرب المسروقة خلال مختلف عصور الاحتلال.

إن ما تعرّضت له آثار العراق مثلاً، إبان الغزو الأميركي في 2003، كان من أخطر عمليات السرقة التي لم تتوقّف منذ ذلك التاريخ إلى اليوم والتي شملت آثار كل من سورية واليمن ومصر وتونس وليبيا في خضمّ ما أنتجته فوضى أو بالأحرى عدوان "الربيع العربي" من عمليات تهريب وتخريب.

إن قضية سرقة الآثار العربية، رغم خطورتها ورغم الأرقام المربحة لعدد الآثار العربية المسروقة والمدمّرة فإنها لم تتخطّ مجال الدراسات والأبحاث الأكاديمية، ولم تتحوّل لتكون موضوع قضايا نضالية جدية ومحاكمات تحظى بالتغطية الإعلامية اللازمة. على سبيل المثال تذكر وزارة السياحة والآثار العراقية أن أكثر من 15 ألف قطعة متحفية تعرّضت للنهب خلال غزو العراق، وأن أكثر من 4370 موقعاً أثرياً تعرّض للتخريب والتهريب، وأعلنت وزارة الآثار المصرية، في صيف 2017، عن فقدان 32 ألفاً و638 قطعة أثرية، على مدار أكثر من خمسين عاماً. فبالإضافة إلى السرقة لغرض كسب الأموال من طرف العصابات فإن غاية العصابات السياسية الإمبريالية من هذا النهب هو محاولة محو التاريخ وتزوير الروايات وتحويل الحضارات العربية القديمة إلى حضارات منسية غابرة لا حجر يدلّ عليها ولا أثر.

من بعض أشهر المسروقات نذكر على سبيل المثال:

- تمثال ذهبي نادر لرأس الملك الفرعوني الشهير، "توت عنخ آمون"
- "لوحة زهرة الخشخاش"
- مؤخراً أوردت وسائل الإعلام أنّ بيانو كان ضمن أثاث القصر الرئاسي العراقي تمت مشاهدته في قصر الملكة البريطانية إليزابيث...
- وفي هذا المجال أيضاً ثمة أمثلة عن السرقات والاختلاسات أكثر من أن تعدّ وتحصى، ومن يريد التعمّق يمكنه البحث بكل يسر في الموضوع ليطلع على هول جرائم العالم "المتحضّر".

عند احتلال الأراضي الأمريكية من قبل الوافدين الأوروبيين شرع الغزاة مباشرة في عملية تطهير عرقي بلا رحمة ولا شفقة باستخدام البنادق وقتل كل من يصادفونهم من نساء وأطفال أو شباب وأحرقوا المحاصيل ليفتك بهم الجوع وسَمّموا الآبار وارتكبوا أبشع المذابح في حق آلاف السكان وعندما ضاق زعماء القبائل "الهندية" بما يحصل لشعبهم طلبوا عقد معاهدات سلام مع الأمريكيين البيض للحدّ من الاستيلاء على أراضيهم أو خطف بناتهم وأبنائهم للعمل في الحقول والمناجم حتى الموت، غير أن الغزاة وبعد حرب الإبادة الشرسة، قاموا بوضع قانون يبيح قتل من يسمونهم "الهنود الحمر" لإبادة ما تبقى من السكان الأصليين، وقام القائد الإنجليزي العام اللورد "جفرى أمهرست" بزيارة "الهنود الحمر" في مناطق نفوذهم لإجراء مفاوضات معهم فاستقبلوه بحفاوة وقدموا له الهدايا وبالمقابل تبرّع بإهداء الفقراء منهم بطاطين أغذية ملوثة بجراثيم الجدرى !! لتيسير إبادةهم وذلك بعد حصوله على موافقة كتابية من السلطات البريطانية والأمريكية باستعمال البطاطين والأغذية الملوثة بالجراثيم، هذا هو أسلوب أهل الغرب "المتحضّر" في إبادة الشعوب لاحتلال أرضهم،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

علماء الكيمياء

المؤسس



ابن سينا

980 م-1037



أبو بكر الرازي

854 م-925



جابر بن حيان

721 م-813

حيث كان يقدم لهم هداياه المسمومة بعد كل معاهدة يعقدها معهم ولكن ما لم يعلمه أولئك المساكين هو أن تلك الهدايا تم جلبها من المصحات الأوربية محملة بجراثيم ووباء الطاعون والدفتريا والحصبة و السل والكوليرا لتحصدتهم حصداً... مستعنيين في ذلك بالأطباء الأوربيين "المتتورين" لتأمين عدم إصابة الغزاة. ولإكمال المهمة رصدت السلطات الاستعمارية مكافأة لمن يقتل ويأتي برأس طفل أو امرأة أو رجل "هندي أحمر"، وانتشر الصيادون في أرجاء القارة يجلبون الرؤوس بأعداد هائلة ثم اقتصروا على فروة الرأس التي يتم سلعها لتيسير عملهم القذر هذا وكان الغزاة المتحضرون يتباهون أن ملابسهم وأحذيتهم مصنوعة من جلود الهنود!

ويروي السفاح الإنجليزي "لويس وتزل" (أن غنيمته من فرو رؤوس الهنود لا تقل عن 40 فروة في الطلعة الواحدة) وهذا يعني أن عدد من يقتلهم في الشهر 1200 إنسان وربما أنه عاش سنوات طويلة في هذه المهنة الدموية، ويعتبر "وتزل" اليوم من أبطال التاريخ الأمريكي!

ومن طرق الإبادة التي اقترفها الإنجليز التهجير القسري للقبائل التي كانت تعيش قرب نهر الميسيسيبي إلى مناطق موبوءة لا تصلح للعيش الأدمي، فقد ترك مئات الألوف

من الهنود منازلهم وحقولهم وهم يذرفون الدموع حزناً على فراق الأرض في رحلة طويلة شاقة توفي خلالها الكثير بسبب المرض والبرد والجوع وقد سميت هذه الرحلة فيما بعد (درب الدموع) وتحمل العديد من الأماكن والشوارع في كل من الولايات المتحدة وكندا اسمه حتى اليوم. في سبعينات القرن الماضي قام النجم السينمائي مارلون براندو بفرض جائزة الأوسكار واحتج على تشويه هوليوود للأمريكيين الأصليين المسمون بالهنود الحمر.

خلال حروب احتلال جنوب إفريقيا من القوات البريطانية عام 1899 تم تكليف العقيد البريطاني "بادن باول" برفع قوة في روديسيا للدفاع عن الحدود في شمال جمهورية ترانسفال، فاختار مدينة "مافيكينج" كقاعدة إمداد وعمل على حمايتها ضد هجمات البوير. قام البوير بحصار مدينة مافيكينج المحتلة من الغزاة البريطانيين الذين كانوا يقاتلون بشراسة لصد أي هجوم على المدينة التي تواصل حصارها لمدة 217 يوماً، مما جعلها مشهورة عالمياً. بالإضافة إلى كل الإجراءات القتالية قام البريطانيون بإنشاء أجهزة استخبارات تعتمد على مصادر المعلومات المحلية بواسطة جواسيس محليين تم تجنيدهم في ما يسمى بـ "الحرس الوطني National Scouts"، أو الكشافة الوطنية. ولما اقترب موعد معارك الحسم، خلال الحصار، استخدم "بادن باول" الأولاد لأول مرة "كشافين"، حيث أخذوا الرسائل وساعدوا المحتالين في أداء مهماتهم في جميع أنحاء المدينة إلى أن تم فك الحصار وانتصرت القوات الغازية، وعند عودته إلى بريطانيا سنة 1901 أصبح في نظر الجميع بطلاً وطنياً عظيماً، وقد مكنته شهرته وشعبيته من بدء الحركة الكشفية حيث استدعى "اللورد روبرت ستيفن سميث بادن باول" 20 شاباً من المدينة وذلك لإقامة مخيم لمدة أسبوع على جزيرة "براونسي" في عام 1907، ولما نجح هذا المخيم قام بنشر كتاب بعنوان "الكشفية للفتيان" تمت ترجمته إلى العديد من اللغات العالمية.

هكذا قفزوا على جرائم حروبهم الظالمة وجعلوا من تاريخهم المظلم والدموي خُلة تترنن بها أغلب شعوب الأرض في شكل الحركة الكشفية العالمية التي كانت في الأصل أول استخدام للأطفال والأولاد في الحروب القذرة في التاريخ المعاصر.

لقد حاول الغرب توظيف النشاط الكشفي في المستعمرات مثل الجزائر لتدجين الشباب في نشاط "محايد" لا يجب أن



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

أن يتدخل في معارك التحرير التي تدور على أرض بلاده وتصدّ العدوان الأجنبي عليها بدعوى أن الكشف أممي ولا يتدخل في السياسات بين الدول وعلاقته بأخيه الكشف في أي مكان من العالم فوق كل شيء ولا تعنيه الهوية المحلية ولا علوية حتى لمبادئ ديانتهم!

هذا قدر يسير لتاريخ السلوك الاحتلالي العدواني للدول "المتحضرة" وما تحتويه كتب التاريخ من حقائق عن جرائم الإبادة والاعتقالات ونهب الثروات وحتى ما خلفوه بعد رحيلهم إنما هي وقائع تشيب لها الولدان ولا تسعها موسوعة!

كل هذا يدفعنا إلى توجيه نداء إلى الضمائر المناضلة لنذكّر بأن الجهد الذي تبذله الأعلام المعادية ومعها الأعلام المأجورة بهدف كسر نفسية المواطن العربي يجب أن تتصدى له أعلام عربية حرة تتدارك الوهن الذي طرأ على واقعنا العربي وتصلح العطب الذي أصاب الذاكرة الشعبية العربية.

مصر والنيل: الأولوية الاستراتيجية لمسألة سد النهضة

بشار شخاترة

مصر قصة طويلة بدأت كتابة فصولها من أقدم العصور، كان حيرها مياه نهر شديد المراس مرّ بأطوار تاريخية طويلة متعددة في عصور ما قبل التاريخ منذ عشرات ملايين السنين، جرى النهر في بر مصر آلاف السنين ومن ثم انقطع وعاود جريانه وهكذا كان النيل يهيئ أرض مصر لتكون مهداً لحضارة جديدة تشكل امتداداً طبيعياً للحضارة العربية في المشرق، ولكن طابعها في مصر كان أكثر هدوءاً واستقراراً نظراً للاستقرار النسبي لجريان نهر النيل عبر قرون.

تأسست حضارة وادي النيل بشكل أبدع نموذجاً بشرياً فريداً في الاستقرار والعمران، المستند إلى استقرار مورد الحياة وهو وفرة المياه، ومنذ تجاوز النيل عقبة هضبة النوبة وأصبح مضطرباً في جريانه من دون انقطاع مع استقرار مناخ الأرض وتراجع العصر الجليدي الأخير الذي هيأ الأرضية لأن يقطع النيل السد الذي وقف عائقاً أمام تدفق النيل إلى بر مصر، أصبحت مصر والنيل توأمين، وبدأت كتابة سفر من أهم أسفار الحضارة فكانت مصر هي النيل والنيل هو مصر، وبقيت بلاد المنبع تقف خلف عصور التاريخ والحضارة حبيسة الجغرافيا والتضاريس الوعرة في عالي الهضبات، تعيش على الرعي والزراعة المطرية وأكبر نعيمها أن يتم تصريف مياه الأمطار التي تهطل في موسم المطر بغزارة لتفيض بعيداً مانعة مخاطر الغرق والغمر عن بلاد المنبع، كانت تلك البلاد منذ فجر التاريخ وحتى هذا اليوم عاجزة عن ترويض الفيضان لم يكن لها منجى سوى تصريف الطبيعة بجريان النيل عبر مسار طويل من الهضاب الصخرية إلى السهول والغابات والمستنقعات وعبر الصحراء وصولاً إلى البحر المتوسط، حيث أبدعت مصر في كيفية ترويض فيضان النهر وكيف تستفيد من علوه وهبوطه.

ليس من قبيل الحشو سرد العلاقة بين النيل ومصر، فهذه علاقة ممتدة ترويه النصوص المنقوشة هنا وهناك وتخبرنا عن أزمان الازدهار والانحطاط تبعاً لعلو النيل وانخفاضه، وعلى سبيل المثال يمكن أن نورد بعض النصوص التاريخية من مصر القديمة التي تحكي عن حجم المعاناة نتيجة تراجع الفيضان لسنوات متوالية، ومنها نقش دونه (انخ تيفي) أمير مقاطعة هيراكونبوليس (الكوم الأحمر) وأدفو على جدران مقبرته في المعلا (جنوب الأقصر) يسجل فيها أحداث المجاعة ويذكر النقش أن (مصر العليا كلها تموت من الجوع لدرجة أن الكثيرين اضطروا لأكل أطفالهم، ولكنني تمكنت من أن لا يموت من الجوع أحد من إمارتي. وقد أقرضت مصر العليا قمحاً... البلاد كالجرادة الجائعة والناس هائمون يذهبون إلى الشمال وإلى الجنوب للبحث عن القمح...)، وبحسب الرواية التاريخية أيضاً فإن مصر وحتى نهاية حكم الأسرة السادسة كانت مجتمعاً مستقراً ومنضبطاً ومشغولاً بأعمال الحضارة والعمران، ويسقطها تفككت الدولة والسلطة المركزية ودخلت مصر عصر اضمحلال يسميه علماء المصريات الاضمحلال الأول، وقد كان في حقيقته مظلماً. ويرجح أن السقوط المفاجئ يرجع إلى انخفاض النيل لسنوات متعاقبة، حيث أدى انخفاض النيل إلى تحطيم القاعدة الاقتصادية للبلاد وإلى إطلاق قوى لم تستطع السلطة المركزية استيعابها.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



والجدل يستمر بين مصر والنيل عبر قرون متلاحقة فقد انخفض النيل لمدة مئتين وخمس وخمسين سنة في عهد الأسرتين العشرين والحادية والعشرين بين سني 1200 و945 قبل الميلاد، وكانت فترة انحطاط وعجز سياسي فقدت فيه مصر الإمبراطورية وانحدرت هيبة الملك وانتشر فيها الفساد وشاع النهب والسلب. لقد كان عصراً مظلماً حقاً في تاريخ مصر القديمة وقعت فيه حربان أهليتان على الأقل حوالي 1139 ق.م وسنة 1089 ق.م، وقد نتج عن الحرب الأهلية الثانية تقسيم مصر إلى قسمين، حكم قسمها الجنوبي من طيبة الكاهن الأعظم حريحور، وحكم قسمها الشمالي من تانيس (صان الحجر) الكاهن سي مندس.

هذه المقدمة والمقتطف التاريخي الذي استهللنا به مقالنا مجرد إشارة إلى التلازم بين نهوض مصر واستقرارها وبين تفككها وانحدارها وبين فيضان النيل وبين انخفاضه. النيل كان وما زال وسيبقى هاجس مصر ومصدر قلقها وراحتها، فمصر بلد أمطاره قليلة والنيل هو المصدر الوحيد الذي يروي عطشها وينبت زرعها، لذلك طورت مصر علاقتها بالنيل بطريقة تغلبت فيها على جموح النيل

في سنوات الفيضان العالي والمتوسط، لكنها كانت دائماً أسيرة مواسم الجفاف التي ينخفض فيها منسوب النهر، ولعل فكرة بناء السدود - على النموذج اليمني أو وفقاً للنموذج المكتشف في جاوا في الأردن ضمن بادية الشام حيث اكتشفت سدوداً لتخزين المياه ومنع الفيضان تعود للعصر البرونزي المبكر (3000-3500) قبل الميلاد - لم يكن معروفاً في مصر، إلى أن فكر ببناء سد على نهر النيل الحسن بن الهيثم وقدم إلى مصر من أجل ذلك، لكنه أدرك أن أدوات ذلك العصر لم تكن متاحة لبناء مثل ذلك السد، وبقي هذا الهاجس شغل الدول والإمارات والأسر التي تعاقبت على حكم مصر.

ولا يسعنا، في تعليقنا على بعض الحوادث التاريخية، إلا أن نؤكد على حقيقة تلازم العلاقة بين مركزية السلطة في مصر وبين استقرار مورد الحياة الوحيد وهو نهر النيل، والنهر منذ ما يزيد على 10 آلاف سنة لم ينقطع جريانه مطلقاً حسب الدراسات التي تؤكد أن فترة انتهاء العصر الجليدي الثالث شهدت تغيرات مناخية هامة، وإن كانت الأمطار تراجعت فوق مصر إلا أن عصراً مناخياً جديداً بدأ في الهضبة الاستوائية وهضبة الحبشة حيث شهدت كلتا الهضبتين أمطاراً غزيرة سمحت بامتلاء خزانات المياه في هضبة البحيرات الاستوائية كبحيرة فيكتوريا وتنجانيقا وكيفو والبرت، إضافة إلى بحيرة تانا في هضبة الحبشة، بحيث فاضت مياهها مشكلة نهر النيل الذي نعرفه الآن، وقد سمحت التغيرات المناخية بديمومة جريان النهر حتى مصبه في البحر المتوسط طوال العام منذ تلك الفترة التاريخية، وبشكل منقطع النظير عن النسخ الموهلة في القدم لنهر النيل التي كانت لا تسمح بوصول النهر إلى مصر حيث كان ينشأت أغلبه في أرض السودان مشكلاً المستنقعات أو أن جريانه عبر مصر كان موسمياً خلال الفترات المطيرة ويعود في مواسم الجفاف للتوقف، لكن النسخة الحديثة من نهر النيل سمحت بتغيرات المناخ باستمرار جريانه عبر ما يزيد على 10 آلاف عام من دون انقطاع وعلى مدار السنة وذلك لكون أمطار الهضبة الاستوائية تتوالى طوال العام بما يسمح بالتدفق عبر النهر، إلا أن موسم الفيضان الحقيقي يأتي في شهور الصيف التي تسقط فيها الأمطار على هضبة الحبشة، ابتداء من شهر حزيران، وتتصاعد في شهر تموز وأب وأيلول بحيث تصبح هذه الفترة من السنة فترة فيضان النهر الذي يتغذى فيه النهر من الرافد الأهم له وهو النيل الأزرق الذي ينبع من هضبة الحبشة منطلقاً من بحيرة تانا، وهذا الرافد وحده يمد النهر بما نسبته 85% من مياه النهر التي تصل إلى مصر، مما يجعل من هضبة الحبشة مجاًلاً حيواً استراتيجياً لأمن مصر والسودان المائي والغذائي، فمصر تحوز على حصة مقدارها 55.5 مليار متر مكعب من المياه سنوياً من نهر النيل، والسودان يحوز على حصة مقدارها 18.5 مليار متر مكعب من مياه نهر النيل، بمجموع مقداره 74 مليار متر مكعب من المياه أغلبها يأتي من خلف الحدود حيث تصنف مصر والسودان أنهما دولتا مصب بالنسبة لنهر النيل.



الاهتمام الحقيقي بنهر النيل ومنابعه بدأ بشكل علمي ممنهج في عهد محمد علي باشا الذي كانت تطلعاته النهضوية لمصر حافزاً لإرسال البعثات الاستكشافية للنهر حتى أعاليه بعد فتح السودان وتأمينه، حيث كانت تشهد مصر حينها نهضة اقتصادية وعسكرية وتوسعاً في مجال الزراعة وإدخال تقنيات حديثة في حينه تقوم على الري المستدام، في جو مضطرب كان يشهد نهوضاً متزايداً للقوى الاستعمارية الأوروبية التي كانت لا تخفي أطماعها في إفريقيا عموماً ومصر خصوصاً، والتي كان نهوض مصر محمد علي باشا يقض مضاجعها، ويذكر أن محمد علي باشا أرسل ثلاث بعثات استكشافية لأعالي النيل في الأعوام 1839 و 1840 و 1842، وإن لم تتعمق حتى مناطق الهضبات إلا أنها أعادت رسم خرائط النيل وهيأت المجال لبعثات لاحقة أوروبية وأمريكية لاستكشاف النهر.

منذ تلك الفترة لم يعد النيل في نظر الدولة المصرية مجرد نهر يجري، ففي ظل الصراع على حوض النيل ووصول الاستعمار الأوروبي إلى دول المنبع أصبح هاجساً مصرياً ألا يكون لها دور في أعالي النهر، وهو ما يفسر إلى حد ما الحملتين اللتين جردهما الخديوي إسماعيل على الحبشة في سبعينيات القرن التاسع عشر، وكذلك الحملات الهامة للخديوي إسماعيل في تلك الفترة التي أدت إلى سيطرة مصر على نهر النيل من منابعه في الهضبة الاستوائية وضمها إلى الأملاك المصرية تحت مسمى مديرية خط الاستواء ودخول أوغندا نفسها تحت الحماية المصرية ورفع العلم المصري على بحيرة فيكتوريا وألبرت وكان ذلك في عام 1875، وتكللت الحملة المصرية في تلك الفترة بتزسيخ نفوذ مصر على منطقة حوض النيل باستثناء الحبشة التي أصبحت مطوقة من جميع الجهات، ورغم هزيمة الحملة المصرية على الحبشة مرتين إلا أن ذلك لم يغير من موازين القوى وبقيت لصالح مصر، حيث وصل النفوذ المصري والسيطرة المباشرة على سواحل البحر الأحمر الغربية كاملة حيث كانت موانئ السودان وميناء مصوغ في أريتريا وميناء زيلع في جيبوتي وميناء بربرة في الصومال وصولاً إلى ميناء كيسمايو على المحيط الهندي تحت السيطرة المصرية المباشرة، علاوة على السيطرة المصرية المباشرة على منطقة هرر التي هي جزء من إثيوبيا الآن، وبالتالي كانت لمصر الكلمة العليا في حوض النيل، ولعله من الدوافع التي دعت الخديوي إسماعيل لتنظيم تلك الحملات والسيطرة على منابع النيل هو النشاط الفرنسي المتزايد وقتها الذي أثار مخاوف مصر من سيطرة فرنسا على منابع النيل، وهذا يفسر بشكل جزئي وضع قادة إنجليز على رأس تلك الحملات للإبقاء للفرنسيين أن تلك الحملات تحوز على الدعم البريطاني، لقد بنت مصر استراتيجيتها على ضرورة أن يكون لها حضوراً وازناً في منابع النيل يضمن حقوق مصر في حصتها من مياه النهر.

لكن التسابق الأوروبي المحموم والتنافس على السيطرة على إفريقيا الذي أدى إلى تضارب في المصالح زاد من مخاوف بريطانيا - التي احتلت مصر عام 1882 وورثت املاكها - من هيمنة قوى لا تتفق معها في أعالي النهر، ما دعاها إلى تنظيم مؤتمر دولي في برلين عام 1884 لتنظيم العلاقة فيما بين المستعمرين الأوروبيين الذين تقاسموا فيها النفوذ والحدود التي ما زالت هي ذاتها حدود معظم الدول الإفريقية اليوم طبقاً للخرائط التي رسمها الاستعمار الأوروبي، مما هيأ المجال لبريطانيا في إبرام اتفاقيات مع إيطاليا وفرنسا وإثيوبيا تضمنت المحافظة على حصة مصر والسودان من مياه النيل، والتزام دول المنبع، وخصوصاً إثيوبيا، بعدم القيام بأية أنشطة تمس من حصة مصر من مياه النيل والإخطار المسبق لمصر حول أية مشاريع وضرورة موافقة دول المصب مصر والسودان على المشاريع التي يمكن تطويرها في أعالي النهر، بالطبع هذه لم تكن لعيون مصر ولكن لتأمين مصانع القماش في بريطانيا من القطن المصري الذي يحتاج كميات كبيرة من المياه لزراعته.

من المفيد الإشارة إلى الاتفاقية التي أبرمتها بريطانيا مع إثيوبيا عام 1902 في أديس أبابا والتي حررت باللغة الأمهرية يتعهد فيها ملك الحبشة "بأن لا يصدر تعليمات أو أن يسمح بإصدارها فيما يتعلق بعمل أي شيء على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوبات يمكن أن يسبب اعتراض سريان مياهها إلى النيل من دون الموافقة المسبقة لحكومة بريطانيا وحكومة السودان". وهذه الاتفاقية تتصل منها إثيوبيا اليوم بحجة أنها تمت في ظل الاستعمار فيما تتمسك مصر والسودان ببندوها.

ارتكزت السياسة المصرية لاحقاً فيما يتعلق بمياه نهر النيل على الاستيعاب الدائم لمتطلبات دول المنبع على قاعدة أن تلك الدول غنية بمصادر المياه، وهو كذلك من الناحية الواقعية، علاوة على أن الزراعة المروية لا تلعب دوراً في نشاطات معظم دول حوض النيل، بخلاف مصر التي تركز زراعتها على الري. ووفقاً لإحصائيات قديمة تعكس تلك الحقائق فإن الزراعة المصرية (المروية)



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



تشكل ما نسبته 73% من جملة الأراضي المروية على طول حوض النيل من المنبع إلى المصب تليها السودان بنسبة 23% من جملة الأراضي المروية وباقي دول الحوض، وهي جميعها دول منبع، فإنها تزرع ما لا يزيد عن 4% من إجمالي الزراعة المروية، ووفقاً لتلك الإحصائيات أيضاً فإن دول الحوض، باستثناء مصر، تعتمد على الزراعة المطرية بتقدير يبلغ 92 مليون فدان أو ما يعادل 38 مليون هكتار من هذا النوع من الأراضي يقع ثلثها في السودان وثلثها في إثيوبيا والباقي في دول الحوض باستثناء مصر، كما تعتمد معظم دول الحوض على الرعي حيث تبلغ مساحة الأراضي الصالحة لهذا النوع من النشاط الاقتصادي أكثر من 520 مليون فدان ما يعادل 215 مليون هكتار يقع حوالي 45% منها في السودان و 20% في إثيوبيا 18% في كينيا و 16% في تنزانيا وأقل من 1% في أوغندا (إحصائيات نهاية ثمانينيات القرن العشرين).

من الواضح إذاً أن اعتماد دول الحوض على تدفق

نهر النيل لغايات الري والرعي قليل جداً لتنوع مصادر المياه في هذا النوع من الأنشطة الزراعية، وهو ما أعطى مصر على الدوام الحصة الأكبر في استهلاك المياه من نهر النيل لفقرها للمصادر الأخرى، لذلك شهد تاريخ العلاقات المصرية مع دول المنبع مبادرات للتعاون في هذا المجال تركز على الحاجة لتوليد الطاقة الكهربائية، وهو ما كانت مصر تتعاون فيه من أجل ضمان استمرارية تدفق مياه النهر واستفادة دول الحوض من هذا المورد في مجال الطاقة، ومن هذه الأمثلة تعاون مصر في بناء خزان شلال أوين في أوغندا، والمساهمة في تغطية ارتفاع السد بحيث تزيد كمية التخزين لفترات الجفاف وبذات الوقت تستفيد أوغندا من الطاقة الكهربائية المتولدة، وهذا المشروع المقام منذ عام 1954 ما زال يعمل ويمثل نموذجاً للتعاون، إضافة إلى مساهمات مصر في دراسات ومشاريع الدول في أعالي النهر، ومن ضمن محاولات كل من مصر والسودان للتعاون مع إثيوبيا في عام 1935 سماح إثيوبيا للخبراء بزيارة بحيرة تانا وعمل دراسات تمخض عنها مشروع لإقامة خزان على البحيرة على نفقة كل من مصر والسودان واستمرت المفاوضات مع إثيوبيا لأكثر من عشر سنوات قبل رفضه من قبلها.

بعد ثورة يوليو انتهجت مصر سياسة دعم تحرر الدول الإفريقية، ومنها دول حوض النيل، وأتاحت لها هذه السياسة حضوراً مهماً واحتراماً حافظ على مصالحها في أعالي النهر وضمن لها استقراراً في تدفق النهر من دون مخاوف تذكر، وهذا علاوة على أن معظم دول الحوض لم تكن تمتلك القدرة المالية والتقنية لتطوير أي مشاريع على نهر النيل باستثناء مصر التي كانت تتعاون في هذا المجال. وبسبب تزايد الاستقطاب العالمي في فترة الخمسينيات والستينيات، والدور الذي لعبته مصر في إطار حركة التحرر العالمي، تنبّهت الولايات المتحدة الأمريكية إلى حصار مصر مصر مائياً والضغط عليها من هذه الخاصرة، فقام مكتب مكتب إصلاح الأراضي الزراعية الأمريكي بين عامي 1959 – 1964 بدراسة على النيل الأزرق اقترحت إقامة 23 سداً على حوض النيل الأزرق لغايات توليد الكهرباء بالدرجة الأولى والري ثانياً وبدرجة أقل لوعورة الأرض في إثيوبيا في حوض النهر بسعة مقدرة 118 مليار متر مكعب. واقتراح التقرير أن يتم البدء ببناء السدود الصغيرة في القرن العشرين نظراً للكلفة المرتفعة حسب التقديرات، أما السدود الأكبر فتؤجل لمطلع القرن 21.

إن الجغرافيا السياسية تلقي بثقلها على شكل العلاقات في شرق إفريقيا وتمتد إلى دول حوض النيل في قلب إفريقيا، حيث تبرز مصر كقوة فاعلة ومؤثرة تتسم بالعمق الحضاري والتاريخي إضافة إلى بعدها وعمقها العربي. هذا الزخم الذي تتسم به مصر لا يقابله مطلقاً أي زخم في إفريقيا، ومن هنا نجد سطوة الجغرافيا السياسية التي تقدم إثيوبيا



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

كقوة إقليمية في شرق إفريقيا تطرح نفسها كمنافس للحضور المصري التاريخي الذي تراجع كثيراً منذ النهج الساداتي، مما أعطى دوراً أكبر لمثل هذه الدول لملء الفراغ. إن دولة مثل إثيوبيا المحاصرة في هضبتها والتي يقسمها الأخدود الإفريقي - الآسيوي مع تعدد الأثنيات فيها لا تجد ما تنافس به مصر سوى هيمنتها على مصدر المياه الأهم لنهر النيل، وبالتالي انتهجت سياسة ملتوية لتحقيق دور موهوم من خلال التحكم بمياه النهر تارة بالتهديد بتحويل مجرى النيل الأزرق وتارة بإقامة السدود على مجرى النهر والتحكم بجريانه بما يضغط على دول المصب وبالتحديد مصر.

استطاعت إثيوبيا أن تُكَيِّلَ دول الحوض حولها وأن تبرم اتفاقية جديدة على حساب مصر والسودان في أوغندة عام 2010 سميت اتفاقية عنتيبي، حيث قسمت المعاهدة دول الحوض بين دول المنبع الثماني ودول المصب مصر والسودان، وقد وقعت ست دول على الاتفاقية، وأهم ما تضمنته الاتفاقية عدم الاعتراف بحصة مصر والسودان التاريخية في مياه النهر، وتقليل حصة مصر من 55.5 مليار متر مكعب إلى 40 مليار سنوياً، كما نصت الاتفاقية على إلغاء بند الإخطار المسبق عند بناء أي مشروعات على ضفاف النهر، والذي تم إقراره في اتفاقيات سابقة بين دول الحوض.

عملت إثيوبيا على التهيئة لمخططها ببناء سد عملاق على النيل الأزرق من خلال هذه الاتفاقية، حيث استفادت من حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي رافقت أحداث يناير 2011 وباشرت ببناء ما أطلقت عليه "سد النهضة" الذي كان مقترحه أن يكون بسعة تخزين 11 مليار متر مكعب ومن ثم تم عمل تعديلات على التصاميم الهندسية وزيادة سعة السد لتصل إلى 74 مليار متر مكعب بما يعادل حصتي مصر والسودان مجتمعتين من مياه النيل سنوياً.

إن السلوك الإثيوبي فيما يتعلق ببناء سد النهضة لا ينم عن نوايا حسنة، فالمزاعم المتعلقة بالري مثلاً غير منطقية وذلك نظراً لأن السد مقام في بقعة تقع أقصى الحدود الإثيوبية مع السودان بمسافة لا تزيد عن 25 كيلومتراً عن تلك الحدود وفي منطقة لا تحتاج تلك الكمية الهائلة من المياه أولاً علاوة على أن إعادة نقل تلك المياه إلى الداخل يستجلب رفع المياه من ارتفاع متوسطه 750 متراً عن سطح البحر إلى ما يزيد عن 1500 متر عن سطح البحر ولمسافات تتجاوز 700 كم، وهذا أمر غير معقول نظراً لتكلفته الباهظة، مع العلم أن كميات الأمطار التي تسقط على الهضبة الإثيوبية تعتبر كميات هائلة تكفي للزراعة المطرية وتزيد، علاوة على طبيعة الأرض الهضبية التي لا تسمح بالزراعات المروية.

إن السد ذو طبيعة مزدوجة، أي عبارة عن قطعتين منفصلتين، الأولى هي السد الرئيسي الذي يولد ستة آلاف ميغاوات من الكهرباء عن طريق 16 توربيناً فرنسي الصنع ولا تزيد سعة بحيرته على 14.5 مليار متر مكعب من المياه مهما بلغ ارتفاعه، وهذه كافية من دون الحاجة للسد الثاني الخرساني الذي يقوم على غلق جبلين مضيقاً سعة إضافية مقدرة بـ 60 مليار متر مكعب ومن دون إضافة أي قدرة كهربائية سوى حجز مياه السد والتحكم فيها واستعمالها وسيلة للضغط على مصر والسودان.

وبسبب زيادة السعة إلى 74 مليار متر مكعب فإن ذلك استدعى بناء سد جانبي (ركامي) وذلك لعمل إحاطة أكبر لاستيعاب المياه المتجمعة نتيجة زيادة ارتفاع السد الخرساني وزيادة السعة، وتشير بعض التقارير إلى أن هذا السد والمسمى "سد السرج" لديه قدرة تحمل أقل للزلازل من السد الخرساني بدرجة واحدة تقريباً على مقياس الزلازل، بمعنى أنه سينهار أولاً في حال حصول زلزال، وأن تدفق المياه سيبدأ من هناك، يضاف إلى ذلك أنه تمت إزالة جبال والتدخل في التكوين الطبوغرافي للأرض التي تقع ضمن حوض السد بحيث تم التدخل في المسار الطبيعي لنهر النيل الأزرق لغايات بناء السد، فإن مخاطر انهيار سد السرج تخفي خلفها النية بتحويل مسار النيل بالكامل، ليتحول نحو (جمهورية جنوب السودان) باتجاه النيل الأبيض القادم من أوغندة ما يعني أن زخم المياه المتدفقة مرة واحدة، والبالغة 74 مليار متر مكعب في حال الانهيار، ستحول مجرى النهر بالكامل، وقد لا يعود يصل إلى مصر والسودان مجدداً، شاقاً لنفسه طريقاً جديداً بحيث يتشتت عبر المساحات الشاسعة مكوناً مستنقعات بما يشبه بدايات تشكل النهر قبل عشرات ملايين السنين قبل أن يستقر على مجراه الحالي، وهنا مكامن الخطورة الأشد على مصر والسودان، وهي أكبر بكثير من حبس المياه لغايات توليد الطاقة الكهربائية، لأن توليد الكهرباء يقتضي تصريف المياه لتحقيق هذا الغرض من دون أن تستدعي الحاجة هذا الحجم الهائل من السعة التخزينية، وحتى لو انتهى أي انهيار إلى تدفق المياه عبر المجرى الطبيعي للنهر فذلك يعني غرق السودان ويتوقع بعض الخبراء أن يصل ارتفاع الماء إلى 15 متراً في الخرطوم كما أنه سيؤثر على مصر أيضاً لكن بدرجة أقل.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

من المهم أن نشير إلى أن المنطقة التي بُني فيها سد النهضة تسمى بني شنقول، نسبة إلى بني شنقول أكبر القبائل في تلك المنطقة وهم عرب، نزحوا إلى هذه المنطقة بعد حملة محمد علي باشا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر واستطاعوا أن يهيمنوا على المنطقة وقد قاوموا محاولات سيطرة الأحباش عليهم، وقد كانت هذه المنطقة ضمن السودان وامتداداً طبيعياً جغرافياً وسكانياً له، واقتطعت بريطانيا هذا الإقليم العربي من السودان وأحقته بالحبشة مقابل تنازلها عن أطماعها بالنيل الأبيض بموجب اتفاقية عام 1902، علماً أن سكان هذا الإقليم يرفضون بناء السد في مناطقهم كونه سيأتي على أراضيهم ومراعيهم.

الطموحات الإثيوبية بالازدهار نتيجة توليد الكهرباء وبيعها لا تتفق مع الكلفة العالية لبناء السد، مع الأخذ بالاعتبار المخاطر المثارة حول السد، وكذلك لا تتفق مع التعنت الذي تبديه في مواجهة مصر تحديداً وبشكل مستفز، ناهيك عما يروجه الإعلام في إثيوبيا من أن هناك نهضة تنتظر الشعب الإثيوبي وأن الغطرسة المصرية والتعالي يعملان على عرقلة تقدم إثيوبيا، كما أن تعنت إثيوبيا في مواجهة الدعوات المصرية للاتفاق حول قواعد ملء السد مع العلم أن مصر ستبقى متضررة ولو تم اتباع أفضل السبل في ملء خزان السد وإطالة المدة، ومع هذا ترفض إثيوبيا الحوار وتمضي في استقزاز وتحدي لمصر في خطوات أحادية وكأن نهر النيل شأن إثيوبي خالص.

تشير المعلومات إلى أن تصميم السد مبني على أساس أنه في دولة مصب وليس دولة منبع، والفارق يكون بوجود تصريف للمياه في حال كان السد في دولة منبع وهو الأصل أن يكون، وذلك من خلال وجود فتحات تصريف في أسفل جسم السد تضمن تدفق المياه، بينما صمم سد النهضة من دون وجود فتحات تصريف والاكتفاء فقط بفتحات توربينات الكهرباء أو فتحات الطوارئ في حال امتلاء السد بفعل الفيضان.

لاحظنا أن السياسة المصرية فيما يتعلق بنهر النيل ومنذ تأسيس الدولة الحديثة على يد محمد علي باشا نهجت سياسة واعية لمخاطر غياب مصر عن أعالي نهر النيل، وكان ذلك انتباهاً حقيقياً ترافق مع بواكير الأطماع الأوروبية الاستعمارية، فقد كانت المعالجة تركز إلى مبدأ القوة والتوسع بدءاً من استعادة السودان وتوحيده مع مصر إلى الحملات التي أرسلها الخديوي إسماعيل والتي استطاعت أن تضع منابع النيل تحت سيطرتها وأن تحاصر النفوذ الإثيوبي، ومن ثم نهجت بريطانيا خلال فترة احتلالها لمصر نهجاً أمنياً فيه حصة مصر والسودان من المياه بحكم نفوذها الواسع في حوض النيل وهيمنتها المباشرة على دوله لتضمن استمرار زراعة القطن حتى تزود مصانعها.

وجاءت سياسة الرئيس جمال عبدالناصر بنفوذ سياسي وأخلاقي وإنساني على إفريقيا عموماً، ودول المنبع خصوصاً، بحكم دورها في دعم حركات التحرر الوطني من الاستعمار الأوروبي، فحافظت على حقوق مصر والسودان معاً في مياه النيل، لكن التحول الذي انتهجه أنور السادات بعد ذلك، والذي قام على تحجيم الدور المصري والانزواء داخل الحدود، قصداً منه أو توهماً أن هذا أسلم لمصر كان قد أطلق العنان للآخرين لتدمير الأسس التاريخية والحضارية والسياسية والموضوعية التي بنيت عليها علاقة مصر بنهر النيل ودول الحوض، وهذا الإهمال المتعمد قاد إلى انفلات عقول العقد النفسية لدى البعض في إفريقيا تجاه مصر، وقد غذى الكيان الصهيوني تلك النزعات، وهو من أكبر الداعمين لسد النهضة اليوم، ويعلم مصر التي لا يخفي مفكروها ومنظروها على وسائل الإعلام الحكومية الدور الصهيوني في موضوع سد النهضة، وهي من زود إثيوبيا العام الماضي بمنظومة سبايدر للدفاع الجوي ونصبها حول موقع السد.

يحاول بعض (المثقفين) المصريين الترويج لمقولة التقاهم مع إثيوبيا ولمقولات المصير الواحد بين دول الحوض، كما يحذرون من أن التعاطي مع سد النهضة من زاوية العنف (والعنتريات الفارغة) لا يجدي، فيمكن لإثيوبيا كونها دولة المنبع الأهم فيما يتعلق بنهر النيل بالنسبة لمصر، أن تحدث مشاكل جديدة من قبيل تلويث النهر، ومن قبيل "ما حاجة إثيوبيا للاحتفاظ بمياه النهر لأنها لا تملك إلا أن تسمح بتصريف المياه"، كما أن إثيوبيا ستعود من جديد لبناء السد أو سدود إذا تم تدمير السد، ويرون أن المسار الأسلم والعقلاني يفرض الضغط على إثيوبيا من خلال (المجتمع الدولي).

من حيث المبدأ فإن وجهة النظر السالفة تظهر وجاهتها، وتبدو منطقية لجهة أن الأصل أن تكون العلاقات بين دول المنبع ودول المصب على خير ما يرام، وهذا صحيح فيما لم لو لم يكن يقف خلف هذا المشروع العدو الصهيوني رغم وجود علاقات بينه وبين مصر بموجب اتفاقية كامب ديفيد، إلا أنه لم يترك مصر تلقت إلى (نهضتها)،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

والذي حدث هو العكس تماماً، فإن خروج مصر من حلبة الصراع العربي-الصهيوني أعطى العدو الفرصة والاسترخاء لإدارة الصراع بطرق جديدة طبقاً لمقتضيات المرحلة التي استتنت الحرب وصدقت مصر أن الحرب انتهت ولكنها لم تنته بالنسبة للعدو.

ووجهة النظر تلك صحيحة لو أن مشروع سد النهضة - الذي أصبح واقعاً الآن - قصد منه توليد الكهرباء والتنمية الاقتصادية كما يروج له في الإعلام، ولكن بدا لنا من خلال تصميم السد بحجمه والمخاوف حول انهياره والمخاوف من تحول النهر عن مساره مفارقاً مجراه التاريخي وتوأمه المصري في حال تعرض للانهدام وهو مملوء بالكامل يجعل من أي وجهة نظر تقوم على التفاهم غير واقعية. وهي غير واقعية كذلك لأنه لا توجد دوافع تاريخية تدفع العلاقات المصرية-الإثيوبية إلى هذا المستوى من العداء التناحري الوجودي فعلياً لولا وقوف (إسرائيل) خلف المواقف الإثيوبية العدائية، فضلاً عن أن مصر انشغلت فعلياً خلال السنوات الماضية بالمسار التفاوضي ولم تقصّر في هذا الجانب إلى أن قطعت إثيوبيا نفسها هذا المسار وقررت الانفراد بالقرار مؤخراً، مع العلم أن في ذلك ضرراً بالنسبة لمصر، ومع ذلك ساءرت مصر مقولات المفاوضات إلى أن وصلت إلى لا نتيجة.

من الواضح أن القيادة الإثيوبية الحالية هي الأشد عداءً لمصر، وهذا لا يمنع أن تختفي ويأتي غيرها أقل عداء ويمكن أن يكون متعاوناً، لكن هذا غير مضمون العواقب والوضع لا يحتمل التجربة فيه، لأن حياة مصر ووجودها ووحدة أراضيها ترتبط ارتباطاً جديلاً باستمرار تدفق نهر النيل إلى برها حتى يصب في بحرها، لهذا تتضاءل المسافة الزمنية مع اقتراب موعد الموسم المطري وبدء ملء السد، وإشعال الحرائق حول مصر في سيناء وليبيا يقصد منه تشتيت جهدها وشل قدرتها على الفعل والمبادرة، وإن التحريض الفرنسي مثلاً، والسعودي والإماراتي لتدخل مصر في ليبيا كأولوية على سد النهضة يثير الشك والقلق مترافقاً مع الاستفزاز التركي بطريقة تضخيم الخطر من البوابة الليبية التي وللأسف أهملتها مصر إلى أن وصلت إلى هذه النقطة، لكن هذا الخطر في ليبيا هل يوازي خطر سد النهضة؟ هل الخطر الإرهابي والوجود التركي في ليبيا يشكل سؤالاً وجودياً لمصر كما هي الحال بالنسبة لسد النهضة؟ فكما الكيان الصهيوني سؤال وجودي أيضاً بالنسبة للعرب ومصر منهم فإنها تدرج ضمن الأسئلة المطروحة في هذا السياق. الجواب على هذه الأسئلة سيحدد خيارات مصر وأولوياتها.

سنحاول المساهمة في الجواب بالقدر الذي تسمح به حدود المعرفة والاطلاع لدينا، ومن منطلق المصلحة العربية لأن الاستهداف ليس لمصر وحدها بل لجميع العرب، وبالتالي تكون مواجهة التحدي من هذا المحدد لا من غيره، فنقول أن هناك رابطاً يجمع خيوط ملف سد النهضة بالملف الليبي وملف سيناء، يقوم على تحالف صهيوني مع إثيوبيا لتطويق مصر والكيان الصهيوني حليف الولايات المتحدة زعيمة حلف الأطلسي الذي تشكل فيه تركيا دولة مهمة والتي هي بمرجعيتها الإخوانية حليفة لحركة الإخوان المسلمين في الوطن العربي وبالتوازي معها تحالف الولايات المتحدة مع التكفير الإسلامي الإرهابي من داعش إلى النصرة إلى امتداداتهم في سيناء، فهؤلاء جميعاً مع محميات الخليج العربي قاطبة يشكلون حلفاً خفياً يتبادلون فيه الأدوار وهذا واضح من خلال تعاطيهم جميعاً مع ملف ليبيا في إطار تحريض مصر للتدخل وسكوتهم عن التحريض مثلاً فيما يتعلق بسد النهضة، وهذا يعكس أولويات هذا الحلف رغم أن ما يحدث في ليبيا ليس بالقليل بالنسبة إلى مصر.

تفكيك ألغام هذا التحالف يمكن أن يسير قدماً وبالتوازي، لكنه يقتضي إعادة تموضع مصرية بالنسبة إلى تحالفاتها الراهنة، والاستدارة عربياً نحو دول كالعراق وسورية والجزائر واليمن لتأمين جبهة البحر الأحمر، ودولياً تحتاج لتمتين العلاقة مع روسيا والصين، هكذا يمكنها بأريحية أكبر أن تفشل مشروع خراب مصر من بوابات سد النهضة الإثيوبي وأن تنزع الفتيل الليبي وتخرج العسكر التركي من ليبيا لنعود للمربع الأول بأن الصراع بدأ مع الكيان الصهيوني ولما ينته، وبذات الوقت ننقل المعركة مع هذا العدو بمواجهته مباشرة لا بمواجهة أدواته.

بدأت مصر مساراً مبشراً في ليبيا بإعلانها وبكل صرامة أنها لن تترك التمدد التركي في ليبيا يستقر وأعلنت أنها ستجند القبائل وتدعمها في مواجهة الاحتلال التركي، وهذا ميزته أنه يسحب البساط من تحت أقدام ذلك الاحتلال بأنه جاء بدعوة من حكومة (معترف بها دولياً)، وذلك من خلال دعم مقاومة شعبية بالتدريب والتسلح مع إسنادها جويّاً، بما يضمن لها سبل النصر، وهنا تحتاج مصر إلى خطوة للأمام أيضاً بضرورة خلق تفاهم مع الجزائر وتقاسم العبء للإطباق على الأطماع التركية التي ما أن تفرغ من ليبيا ستتمدد شرقاً وغرباً،



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

وهذه تحتاج إلى دبلوماسية دؤوبة من جانب مصر. ويمكن لمصر الاستعانة بالموقف السوري الداعم لها في الملف الليبي وتوظيفه لدى الجزائر لبناء موقف عربي أكثر شمولية بوجود سورية والجزائر مع مصر في هذا الملف.

تقاسم الجبهة مع أخوة الدم من العرب ضد تركيا بقيادة مصر سيساعدها كثيراً في المبادرة بشكل حازم في موضوع سد النهضة كحزمها في الملف الليبي، فالملف الليبي كقطر عربي إن ترك للصدفة سيزرع ("إسرائيل" جديدة) في المغرب العربي، فحتى لا يتسع الرقع على الرائق يتطلب الموقف تحركاً من باقي العرب وعلى رأسهم الجزائر، لكن، وعلى أي حال، فإن مصر في موقع الخيارات المرة، وطالما أنها بدأت من ليبيا فإن عليها أن تدير هذا الملف على قاعدة أنها تخوض حرباً مركبة على أكثر من جبهة، فجبهة إثيوبيا لا تحتمل أيضاً الغفلة عنها وتركها للصدف والمفاوضات والمماطلات الإثيوبية، أقلها تحرك خاطف نثق بأن العسكرية المصرية لها القدرة والعبقرية أن تنفذ هجومي بالتوازي في ليبيا وإثيوبيا وبضربات الصاعقة، وخصوصاً في الملف الإثيوبي الذي يسبق الزمن إلا أن إمكانية إنجازه بسرعة بشكل خاطف نثق أن مصر قادرة على التعامل معه.

إن تشابك الملفات واستعصاء إيجاد الحلول لها مع استمرار حركتها بشكل يضيق الخناق حول مصر لربما يحتاج إلى كسر مسار المخطط وتشتيت اتجاه سيره، وهذا يحتاج إلى هزات عنيفة ربما هي الحرب، وهي تعذب القلب لكن خلفها حياة مصر والعرب لا تارهم وحده، فالخطة المحكمة تتسم بالعمق والإستراتيجية لذلك تحتاج إلى رد إستراتيجي ضمن خطة تعادلها في الإحكام على ضوء إعادة التوضع المشار إليها في الفقرة السابقة، فالجيش المصري سبق أن أجهض مشروع أخونة المنطقة عندما أسقط حكم الإخوان المسلمين في مصر، وكان هذا عملاً إستراتيجياً، والآن الوقت يداهم مصر من محاور عدة تكون عناصر الرد الإستراتيجي قد نضجت ويقضي وضعه موضع التنفيذ، وإلا فنحن مقبلون على الخراب الشامل ونقترب أكثر من الضربة القاضية.

الخطاب الأثري بين التوراة والاستشراق: سرقة الماضي العربي الفلسطيني

فارس سعادة

شهدت الإنسانية خلال القرون الأربعة الماضية تغيرات عديدة وجوهرية في حياة البشرية، لم يشهد التاريخ مثيلاً لها من حيث النوع والكم، فقد مهدت الثورة الصناعية في أوروبا لظهور الأطماع الكولونيالية الغربية، كما ساهمت في إعطاء المعرفة والعلم في مختلف المجالات دفعة عملية كبيرة من قبل السلطات والحكومات المختلفة، وذلك في خدمة الإنتاج والتوسع الكولونيالي على حساب الشعوب الأخرى.

أدت هذه العلاقة النفعية بين المعرفة والسلطة في أوروبا إلى سيطرة العقل الغربي على المعرفة بشكل كبير وعالمي، وبالتالي فإن الممارسات التي أنتجت شتى أنواع العلوم وقعت في مجالات عدة تحت تأثير دوافع سياسية مختلفة، وبالعكس فإن الكثير من الممارسات "العلمية"، بل وبعض العلوم الناشئة حديثاً، خلال القرن الماضي والذي سبقه، كانت نابعة من منظور سياسي معين ولأسباب ودوافع براغماتية كولونيالية محددة.

يحتاج الكثير من النقاد الغربيين بأن علم الإنسان «Anthropology» ما هو إلا وسيلة «أكاديمية» للسيطرة على الشعوب الأصلية «Aboriginal» من قبل السكان الأوروبيين الوافدين على الأراضي الجديدة في الأمريكتين وأستراليا وغيرها من مناطق آسيا، كما ينتقد أغلب علماء الآثار الحدائين وما بعد الحدائين الممارسات الأثرية التي جرت خلال القرن العشرين في مناطق الوطن العربي المختلفة. بعض هؤلاء العلماء يرفض تماماً قبول النظريات الأثرية والتاريخية التي تم إنتاجها من قبل أفراد ومؤسسات غربية ليست لها علاقة بالتقافات المحلية في المناطق التي تم التنقيب والعمل فيها، كما يرفضون تاريخية هذه الطروحات الأثرية لأسباب تتعلق بالممارسات نفسها ومرجعيتها التاريخية الضيقة، كما يربط هؤلاء النقاد هذه الممارسات بالظروف التاريخية التي حصلت خلالها وعدم شرعيتها في ظل وجود كولونيالية، أي احتلال أجنبي مشرف وقائم على هذه الممارسات.

هذا ما كان سبباً في ظهور علم الآثار الحديث «New Archeology» والذي دمج شتى التقنيات المختلفة لتفسير المادة الأثرية،



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



كما أشرك عدة علوم إنسانية وطبيعية في عملية التفسير الأثري، وبعض العلماء اعتمد على مناهج مختلفة أو دمج بينها للوصول لأدق تفسير للماضي والأقرب للحقيقة بعيداً عن التصورات التاريخية المعروفة، وأشهر هذه النظريات في علم الآثار كانت نظريات ما بعد-العملية "Post-pro-cessual" التي دمجت الماركسية والبنوية وغيرها من النظريات الاجتماعية للوصول لأدق التفسيرات، وهي أقرب في الحقيقة إلى أن تكون علم التفسير الأثري.

تبقى دقة التفسيرات الأثرية ومهنية العمل الأثري تعتمد على الممارس للعمل والبيئة المهنية والأكاديمية المحيطة والمشرقة على العمل، فالممارسة ترتبط بالنظرية بشكل أو آخر، فبحسب غرامشي فإن النظرية والممارسة لا يمكن الفصل بينهما، بل ولا يجب الفصل بينهما، إذ أن الأيديولوجيا لا بد من أن تكون عاملاً مؤثراً في الفرد أو المؤسسة التي تمارس عملاً معيناً، أكان سياسياً أم علمياً... إلخ، كما يرفض غرامشي مقولة حيادية العلم والمعرفة ويشدد على وجود هيمنة "Hegemony" ناعمة غير مرئية تمارس من قبل السلطة. ففي ظروف غرامشي التاريخية، أي في إيطاليا، كانت الهيمنة الطبقية ومن ثم الفاشية على إيطاليا وعلى جنوبها ذي الطابع الريفي هي العامل المؤثر في كل نواحي الحياة الاجتماعية والتربوية التعليمية كما الاقتصادية والسياسية وغيرها. هذه الهيمنة، وبحسب غرامشي، أنتجت خطاب الهيمنة الذي يصل لكل نواحي الحياة، فالخطاب الذي يتمتع ببنية تحتية قادرة على نشره وتثبيته والدفاع عنه في كل مكان وزمان هو الخطاب القادر على الانتشار والإقناع، وبالتالي فإن قوة هذا الخطاب أتية أساساً من بنية المتكلم والأساس المادي والاجتماعي الذي ينطلق منه، وهنا في موضوع الآثار والماضي، أي على مستوى أوسع وأكبر يمس الشعوب والحضارات، تأتي قوة الخطاب من خلال البنية التحتية التي تشمل الاقتصاد أساساً ومن ثم السياسة وكافة نواحي الحياة الأخرى، ومنها المعرفة، أو الخطاب المعرفي والأكاديمي.

يشهد تاريخ علم الآثار في فلسطين تحديداً على صحة وحقيقة ما صاغه أنطونيو غرامشي حول الهيمنة والخطاب في سجنه الفاشي، فقد استطاع الغرب خلال القرن التاسع عشر بمساعدة معاهده المختلفة تأسيس بنية تحتية قوية تكونت من جيش من رسامي الخرائط ومساحي الأراضي وعلماء التاريخ والجغرافيا واللغويين والمؤرخين وغيرهم من هواة جمع القطع الفنية التاريخية والآثار... إلخ، هذه البنية هي التي أتاحت السيطرة على السرديات التاريخية في فلسطين، فكل سرديّة تاريخية تحتاج إلى مادة ملموسة لكي يتم العودة إليها لتأكيد صحة تلك الرواية أو السردية، ومن هنا جاء علم الآثار في فلسطين كمعزز للأطماع الكولونيالية الغربية وكمساهم لعمليات الطمس الحضاري والهوياتي للشعب الفلسطيني... ولكن ما هي حقيقة علم الآثار في فلسطين؟ وهل هناك إسرائيل القديمة؟

لا بد من الإشارة إلى أن نشأة علم الآثار حصلت في القارة الأوروبية، وقد ارتبط منذ نشأته بالسياسة، فقد تم استخدامه كمعزز ثقافي لماضي الشعوب هناك من إسكندنافيا مروراً بفرنسا وألمانيا وبريطانيا، لذلك لا يسع الباحث والمختص العربي إلا أن يستخدم المناهج الغربية في هذا العلم، ولكن من حقه أن يستخدمها بعين الناقد والمشتكك دائماً، وأن يضع المناهج التحليلية والتاريخية دائماً أمام كل مشكلة تاريخية لكي يكون علم الآثار القاضي والحكم.

عزز الدين أهمية فلسطين العالمية، فالديانات السماوية الثلاث وضعت فلسطين كأساس جغرافي مقدس لعقيدتها، وهذا ما ساهم - العامل الجغرافي - السياسي هو الأهم - في جلب الاهتمام الأوروبي بفلسطين عموماً وبالقدس تحديداً، فقد مر على فلسطين منذ ما قبل حملات الفرنجة «الصليبية» مئات الرحالة والحجاج والكهنة الأوروبيين لأسباب غالباً ما كانت روحية. ومع تطور الوضع الاقتصادي والاجتماعي في أوروبا خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بدأت الأطماع الغربية



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

في فلسطين بالتبليور معززة بتاريخية فلسطين كجغرافيا داخل العقل الغربي "المسيحي واليهودي"، وخصوصاً بعد تجربة محمد علي باشا تضاعف الاهتمام وتحول إلى هاجس جغرافي-سياسي معزز بتاريخية فلسطين في العقل الغربي، ولكن ما لم يخطر في بال أكثر من العرب، حتى الباحثين منهم، هو موقع علم الآثار في فلسطين، وأنه كان رأس الحربة في تأسيس ماضٍ سهل ويعزز "شرعية" الاغتصاب الصهيوني فيما بعد!

فرضت بريطانيا نفسها كرأس حربة في تأسيس وإنجاح المشروع الصهيوني في فلسطين، فقبل وعد بلفور كان هناك الكثير من الأعمال الناجزة التي أشرف عليها التاج البريطاني في فلسطين، وهنا يأتي علم الآثار كأساس تاريخي للمشروع الصهيوني في فلسطين، في عام 1865 تم تأسيس صندوق اكتشاف فلسطين "Palestine exploration fund"، وقد كانت أول أعماله هو مسح الذخائر في فلسطين والذي غطى أغلب جغرافية فلسطين التاريخية والتي شملت بعضاً من مناطق الأردن ولبنان، وكنا هدف هذا المسح وقد شكل المسح 26 خارطة واستمر بين عامي 1871-1875، ونشرت الخرائط في العام 1888 على شكل مجلدات تشمل أسماء التضاريس والمدن والقرى... إلخ.

شكل هذا المسح خطوة أولى في سرقة ماضي فلسطين، فالكثير من الأسماء التي تم إطلاقها على القرى والشوارع والمساحات الخضراء والخرائب الأثرية كانت تسميات توراثية خالصة، أو إنها تحريف عن الاسم العربي أو الكنعاني القديم، هذا ما جعل البعض من العرب والفلسطينيين تحديداً يحار بيع بعض التسميات القديمة قبل عام 1948، والتي ترتبط بالتوراة أو اليهود، وذلك بسبب نشر هذه الأسماء في الخرائط الرسمية العثمانية والحديثة فيما بعد من قبل الإنجليز.

جاء علم الآثار في فلسطين في صدارة الاهتمام الغربي والصهيوني منذ نهاية القرن التاسع عشر وصولاً إلى اليوم، هذا ما قالتها الأستاذة نادية أبو الحاج المختصة بالموضوع، أما عن الممارسات الأثرية في فلسطين ونتائج العمل الأثري الكولونيالي منذ الاحتلال البريطاني وصولاً إلى اليوم فقد تشعبت نتائجه وتشاجر أصحابه، بالرغم من أن كل النتائج تصب في مستنقع الرواية التوراثية التي تؤكد وجود ما يسمى "مملكة إسرائيل القديمة".

بالرغم من أن الكثير من علماء الآثار الغربيين والعرب رفضوا هذا الطرح، إلا أن القارئ غير المختص لا يزال إلى يومنا هذا يرتبك بمجرد تفكيره بالموضوع لأسباب مختلفة سألخصها بالنقاط التالية:

1. أن كل الممارسات الأثرية من تنقيبات وتفسيرات أثرية وما هناك من علوم مساعدة أشرفت عليها معاهد غربية أو صهيونية، هذا ما أدى إلى تحديد عمليات التنقيب بفترات معينة وتهميش فترات أخرى.
2. سيطرت الرواية التوراثية على العقل الغربي وأنتجت ما يسمى علم الآثار التوراتي "Biblical Archaeology" والذي يُعرف بأنه العلم القائم على البحث والعمل على قصص الأحداث التوراثية المذكورة داخل الكتاب المقدس أو التوراة "Old Testament"، والتي تُعتبر أحداث تاريخية ذات مصداقية كبيرة ولا يمكن التشكيك بها.
3. المصالح السياسية والفوائد التي تجنيها المعاهد والأفراد المشرفون على عمليات التنقيب والتفسير الأثري داخل فلسطين.
4. عدم وجود خطاب عربي مختص بهذا المجال، وعدم ممارسة العرب العمل الأثري في فلسطين بسبب الاحتلال الصهيوني لها، وقصور الوعي بالموضوع.
5. التفوق المعرفي والتقني والمصداقية الكبيرة التي تمتلكها هذه المعاهد العالمية.
6. ارتباط بعض الروايات الإسلامية والمسيحية ببعض الروايات التوراثية وهذا ما جعل مصداقيتها لدى العرب المسلمين والمسيحيين كبيرة إلى حد ما.

يهدف المقال أن يصل الفرد العربي غير المختص بعد قراءته إلى الوعي بأهمية الآثار والأسباب التي جعلت منه علماً وطنياً داخل الكيان الصهيوني، ولذلك لن يتسع المقال للحديث حول آليات الرد والوقوف في وجه الخطاب الصهيوني لعلم الآثار، فالهدف هنا هو تفنيد وجود الماضي "الإسرائيلي" في فلسطين على أشكاله المختلفة التي ذكرها مختلف علماء الآثار، ففي الحقيقة هناك ثلاث مدارس رئيسية تحدثت عن فلسطين من وجهة نظر العقل الغربي والصهيوني بعضها يعتقد بأنه فند الرواية التوراثية لأنه ببساطة قال "إن أحداث التوراة خيالية ولا وجود لأي أثر مادي لها في فلسطين"، وفي المقابل يؤمن قائل هذه المقولة بحل الدولتين مثلاً!



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

كما يؤكد الوجود "الإسرائيلي القديم" في فلسطين بشكل من الأشكال.



كتب عالم الآثار "الإسرائيلي" كيث وايتلام "أن إسرائيل القديمة ما هي إلا خيط رفيع في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني"، وهنا تبرير لوجود تاريخي "لدولة إسرائيل القديمة" ولكنها كانت جزءاً صغيراً مقارنة بالماضي الفلسطيني الغني، وهذا ما يمر على الكثير من العرب عامة الناس ومتقفيها، حيث أن وجود "إسرائيل القديمة" كجزء من الماضي على أرض فلسطين يبرر وجود دولة الكيان الآن بالنسبة للعقل الغربي، حيث أن علم الآثار في فلسطين يهمل ويطمس الثقافات القديمة لصالح صهيوني تاريخي، وبالتالي ومن خلال المقارنة بين المنتج الحضاري والتاريخي "لدولة إسرائيل القديمة" وبين الكنعانيين مثلاً من وجهة النظر التي يقدمها علم الآثار عموماً ستنتج الإيمان بأن الملك داود هو وحده في كل تاريخ فلسطين القديمة من استطاع تأسيس دولة موحدة، على عكس

الكنعانيين الذين بحسب علم الآثار المتحيز لم يستطيعوا أن يؤسسوا أي دولة، حتى مدنهم وبيوتهم وفخارهم ومنتجاتهم لم تكن تضاهي بيوت ومنازل "شعوب البحر"، وتحديدًا "الفلسط" الذين قدموا إلى فلسطين وسيطروا عليها لفترات معينة ثم ذابوا داخل المكون الكنعاني المحلي... على الرغم من إن هؤلاء، أي شعوب البحر والفلسط لم يتم العثور على نص واحد يذكر لغتهم أو مكتوب بخطهم، وحتى ألتههم هي آلهة كنعانية شهيرة مثل "داجون"، إله الحبوب والقمح الكنعاني. وعلى أية حال يشتهر الكنعانيون بأنهم أصحاب التركيب الاجتماعي السياسي المسمى بدويلات المدن "City states"، وهذا أرقى ما توصل له الكنعانيون سياسياً، وذلك بالنظر إلى البيئة الجغرافية والتضاريسية التي ساهمت في نمو هذا التشكيل الاجتماعي السياسي في مناطق شرق المتوسط عموماً.

فعلم الآثار التوراتي استخدم كوسيلة لتأكيد المطالبات الصهيونية بالحق في الأرض، ولذلك تم استخدام التوراة كمصدر حقيقي موثوق، ومن ثم أصبح علم الآثار هاجساً "وطنياً صهيونياً" لدى الأفراد في دولة الكيان، أما الخروج عن التوراة مؤخراً ورفضها من قبل الكثير من علماء الآثار الصهانية فهو لا يتجاوز كونه التفافاً على الحقائق المادية التي تخرج من الأرض إثر التنقيبات الأثرية الكثيرة في فلسطين، فتراكم هذه النتائج جعلهم يتوقفون قليلاً لإيجاد حل منطقي يقبله العقل الغربي أيضاً. وأكبر مثال على ذلك هو فينكلشتاين الذي يعد خارجاً عن نصوص التوراة، والذي يقول بأن الملك داود لم يكن سوى بدوي ومعهم جماعة من الناس يقطعون الطريق، ولكن وبسبب الظروف التاريخية في فلسطين والمنطقة الممتدة من الفرات إلى النيل ومن جزر بحر إيجة إلى شواطئ المتوسط شمالي سورية وصولاً إلى أنطاكية وماردين المحتلتين الآن، استطاع ملوكهم داود أن يؤسس دولة ما ويوحد جماعة من الناس حوله!

ينتهي طرح فينكلشتاين بالوجود "الإسرائيلي السياسي" في فلسطين بشكل أو بآخر، في مقابل تبعية الوجود الكنعاني لمصر، أو سيطرة "فلسطين" قادمة من البحر على فلسطين، بمعنى آخر عدم وجود سيطرة سياسية موحدة على فلسطين من قبل الكنعانيين تاريخياً على شكل دولة، أما ملوكهم داود بشكل أو آخر فقد استطاع تشكيل دولة موحدة قبلية أو غيرها، فالمهم أنه أوجد كياناً سياسياً لم يكن موجوداً قبل العام 1200 قبل الميلاد في فلسطين. إضافة إلى التفوق "الإسرائيلي القديم ثقافياً"، حتى ولو كانوا بدواً مثلاً، فمن خلال ديانة التوحيد التي تعتبر أرقى ثقافياً من الديانة الكنعانية الوثنية الهمجية بحسب هذا الطرح، فمجرد عقد مقارنة بينهم ستكون في صالح الطرح الصهيوني "التقدمي"، فهم كانوا جزءاً من التركيب الديموغرافي في فلسطين كما كان بنو كنعان وغيرهم، وهنا يصبح حق امتلاكهم الأرض مستمداً من منجزاتهم الحضارية ووجودهم التاريخي والسياسي الذي قضى عليه بالقوة من قبل السلالات الحاكمة في العراق، البابلية والآشورية.



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

أما عن تاريخ التنقيبات الأثرية في فلسطين فهو طويل جداً وكثيف بحيث لا يمكن اختصاره في مقال من هذا النوع، ولكن كاتلين كينيون أشهر علماء الآثار المختصة بفلسطين شهدت بأنه لا يوجد أثر واحد يدل على "دولة إسرائيل القديمة"، وبالرغم من ذلك فهي حاولت على سبيل المثال تأريخ السور القريب من مدينة القدس عند منطقة باب الواد، بأنه السور "اليبوسي" بالرغم من أن تاريخه لم يتجاوز الفترات الهلنستية، أي 300 قبل الميلاد، كما أنها حاولت تبرير وجود تدمير في بعض المواقع بأنه حصل نتيجة للهجمات "الإسرائيلية" القديمة خلال الفترة الممتدة بين نهاية العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي الأول.... إلخ، ولكن في المحصلة، ولكي يعلم الفرد العربي الحقيقة، نقول له ببساطة بأن مدينة القدس لم تكن مدينة في الحقيقة في الفترات التاريخية التي يقول "الإسرائيليون" بأنها فترات دولتهم وما سبقها، فهي لم تكن تتجاوز حجم القرية ولا يوجد فيها أثر واحد يدل على أنها كانت مدينة قبل تاريخ 1200 قبل الميلاد، كما أن مدينة القدس والتي يعتقد البعض بأن أول اسم لها هو "يبوس" هو محض خيال توراني ولم يرد ذكر للاسم جغرافياً في أي وثيقة تاريخية سوى التوراة. فاسم ييوس لم يذكر خارج التوراة عكس الاسم "يروशल"، أي أور سالم الذي ذكر في نصوص اللعن المصرية في 1800 قبل الميلاد كما ذكر في رسائل تل العمارنة بتاريخ 1400 قبل الميلاد.

كما أن كل من شرح التوراة، أو أي من علماء الآثار، لم يأتي بمقال واحد أو حقيقة واحدة حول المباني التي شيدها داوود أو من خلفه، لا في القدس ولا في أي مكان آخر في فلسطين، وما ينشر في الكثير من الصحف الغربية حول العثور على مخلفات لهم أو مبانٍ أو جسور، لن يمضي شهر أو شهران حتى تتبين الحقيقة التي تنفيه، من خلال تقارير الحفريات العلمية في مجلاتهم هم، لا نحن.

إن عدم وجود آثار مادية "لدولة إسرائيل القديمة" أجبر الكثير من علماء الآثار الصهاينة على قلب خطابهم الأثري بالقول بأن الأصول البدوية والأوضاع السياسية لم تسمح لهم بذلك، ولكن بشكل غير مباشر، أمثال فنكلشتاين، أي أنه يقول بتأسيس داوود لمملكة قديمة وتوحيد سياسي، في مقابل غياب حضاري راقي للكنعانيين فهم وثنيون تحت سيطرة مصرية ومن ثم فلسطينية قادمة من البحر، وهذا طرح خطير على المستوى الهوياتي والسياسي، فهو يصل الماضي بالحاضر، فالصهاينة القادمون من أوروبا بداية القرن العشرين إلى فلسطين لا يختلف وضعهم عن الفلسطينيين القادمين من جزر بحر إيجة وجزيرة كريت، خصوصاً في ظل تهيش وطمس الآثار الحضارية القديمة للفلسطينيين العرب في فلسطين من خلال طرق الحفر والتنقيب هناك في فلسطين المحتلة، فعمليات الحفر العامودي والأفقي تدمر الطبقات الأثرية بشكل كامل، وهذا ما يريده علماء الآثار في فلسطين المحتلة من طمس باقي الطبقات الزمنية لصالح طبقات أثرية معينة تعود غالباً لفترة نهايات العصر البرونزي المتأخر وبداية العصور الحديديّة أي ما بين "1400-1200 قبل الميلاد".

إثبات صورة فلسطين المتخيلة في العقل الغربي ومن ثم الصهيوني هو الهدف الأساسي بعيداً عن أي حقيقة تاريخية وعلمية، وهو امتداد للعقلية الاستشراقية الممتدة منذ ما قبل حملة نابليون نهاية القرن الثامن عشر، وبالنظر إلى حقيقة عدم وجود آثار مادية تؤكد وجهة النظر التوراتية حول فلسطين علينا نحن كعرب العمل على تنفيذ الرواية التوراتية من أساسها لا الالتفاف عليها بتغيير الجغرافيا التي حصلت عليها الأحداث التوراتية أو أخذ ما يروق لنا ورفض الباقي، لأن ذلك بشكل أو بآخر يبرر الاستمرارية "الإسرائيلية" في فلسطين سياسياً وحضارياً، فالأصح هو العثور على الحقيقة المادية التي يؤكد علم الآثار.

للحديث بقية....



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

مسألة الصحراء المغربية: عندما يتستر الانفصاليون برداء التقديمية

عبدالناصر بدروشي



رداً على مقال نشرته لائحة القومي العربي في مجلتها "طلقة تنوير"، العدد 69، بعنوان "الصحراء المغربية من منظور التجزئة الاستعمارية"، للرفيق إبراهيم حرشاوي، تعرضت صفحة لائحة القومي العربي إلى حملة تشويه شنها الذباب الإلكتروني قام خلالها أحد أنصار ما يسمى بقضية الصحراء "الغربية"، بكتابة "مقالة" هي أشبه بتجميع للتخاريف والمغالطات التي يعدها الانفصاليون "أدلة" على شرعية "قضيتهم" المزعومة ولا ينفكون يرددونها في كل المحافل.

نظراً لانجرار الكثير من الشرفاء خلف دعاوى انفصال الصحراء المغربية، وبعد أن اطلعنا على أغلب ما كتب حول الموضوع، نكتب هذا الرد احتراماً لعقول الباحثين عن الحقيقة.

- المغالطة الأولى:

يدّعي أنصار "البوليزاريو" أننا نتهم على "الصحراويين" ونناصبهم العداء، وأن رفضنا لانفصال الصحراء المغربية يجعل منا أبواقاً للنظام المغربي.

الرد:

أشقاؤنا الصحراويون هم جزء لا يتجزأ من الشعب العربي، وهم لم يتصلوا يوماً من عروبته، وبناءً عليه فنحن ننتصر لهم في مواجهة أي نظام عميل ونساند حقهم في أن يحيوا حياةً كريمة، كما ننتصر لكل المغاربة الذين يزرعون تحت سلطة نظام مطبوع وتابع للإمبريالية، ولكن العقل الصغير الملتبس الذي يحمله الانفصالي فوق كتفيه يعجز عن الإدراك أن وقوفنا في وجه الظلم ومساندتنا لأية مطالب محقة لأي شريحة من شرائح المجتمع العربي لا تضفي المشروعية على أي محاولة لتفكيك ما تبقى من شظايا الوطن العربي المقسم. فمناهضة نظام شيء، وتفكيك الوطن شيء آخر.

لو طالبت جبهة "البوليزاريو" بتحرير المغرب من سلطة نظام فاسد ومطبع وعملت على توحيد المغاربة تحت راية جمهورية عربية مغربية، ولو طالبت بالانضمام للجزائر مثلاً بدل المغرب فستعتبر حينها حركة وحدوية لا انفصالية، ولكننا أول من دعمها وساندها بكل ما أوتينا من جهد، ولكن فساد النظام لا ينبغي أن يدفعنا لتقسيم الوطن. يدرك الجميع بأن تونس اليوم تحت سلطة نظام فاسد، عمل على تهميش الجنوب والشمال الغربي على حساب الشمال الشرقي والساحل عموماً، فهل من المنطقي أن نطلق حركة لتحرير الجنوب مثلاً وأن نرفع راية الانفصال تحت راية "رفع المظالم"؟

وهل نقبل بتفكيك اليمن إلى جنوبي وشمال مثلاً تحت أي ذريعة، حتى ولو كانت محقة؟ طبعاً لا، وألف لا...

فالرد على المظالم يكون عبر النضال في سبيل رفعها ضمن مشروع وحدوي يؤسس لدولة قوية قادرة على توفير العدالة والقوة اللازمة لحماية مواطنيها، وليس عبر تأسيس كيانات ضعيفة قائمة على أساس طائفي أو مناطقي أو عشائري لا يملك مقومات حمايته إلا بالقدر الذي تسمح به المنظمات والترتيبات الدولية التي خلقت أساساً لإضعافنا.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

- المغالطة الثانية:

يدّعي أنصار "البوليزاريو" أن "حق تقرير المصير" يجب أن يُمنح للصحراء المغربية بذريعة أن استقلال الصحراء عن الاحتلال الإسباني جاء بعد استقلال المغرب، وبذريعة أن المغرب رفض دعم الصحراويين في حرب التحرير، ويذكرنا الانفصاليون بأن المغرب سنة 1966 صوّت لصالح منح الصحراء حق تقرير المصير ويشيد بموقف ليبيا كأول دولة عربية طالبت إسبانيا بالجلء عن الصحراء الغربية على لسان الراحل معمر القذافي.

الرد:

يعمد أنصار "البوليزاريو" إلى مغالطة منطقية، فهم يعتبرون النظام المغربي عميلاً وفاقداً للشرعية من جهة، ثم يستدلون بقرارات ومطالب ذلك النظام الفاقدة للاستقلالية وللشرعية حين اعتبر الصحراء الغربية كياناً مستقلاً له حق تقرير المصير! وهم يخلطون بين أتباع المغرب وليبيا أي وسيلة لدفع إسبانيا للجلء عن الصحراء، وبين الانفصال عن التراب المغربي.

ومنذ متى، وعلى أي أساس، كان تأخر استقلال جزء من الوطن يعطيه المشروعية لإقامة دولة مستقلة؟ هل يعطي الخروج المتأخر للاحتلال الفرنسي من مدينة بنزرت التونسية أهلها الحق في إقامة دولة مستقلة عن تونس مثلاً؟

عندما يستقل الجولان عن الاحتلال الصهيوني، هل يعطي الفارق الزمني بين خروج المحتل الفرنسي من سورية والمحتل الصهيوني من الجولان للجولانيين الحق في إقامة دولة مستقلة مثلاً؟!

وحول إقرار النظام المغربي سنة 1966 لحق الصحراء في تقرير المصير (عن إسبانيا)، هل أن قبول بعض ممثلي الحركة الوطنية السورية باستقلال الكيان اللباني منفصلاً عن سورية يشرع لطمس التاريخ والجغرافيا اللذين يثبتان أن لبنان جزء من بلاد الشام وسورية الطبيعية؟

يغالطنا الانفصاليون حين يركزون على تاريخ استقلال الصحراء المغربية، أليس من الأجدر التركيز على تاريخ الاحتلال ووحدته أهدافه؟

أدى التنازع بين القوى الاستعمارية إلى تقسيم المغرب إلى ثلاث مناطق:

- * منطقة شمالية ومنطقة صحراوية (الصحراء "الغربية") في الجنوب تحت الحماية الإسبانية.
 - * منطقة وسطى تحت الحماية الفرنسية.
 - * مدينة طنجة التي خضعت لحماية دولية مشتركة بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا.
- وقد تنازلت فرنسا لإسبانيا عن جزء من الأراضي المغربية، فوفق أي منطق نندفع للقبول بالتقسيمات الاستعمارية كأساس نقيم عليه حدوداً ودولاً؟

وبناءً عليه، فإن منطق الأمور يفرض العودة للوضع الطبيعي ما قبل الاحتلال، الوضع الوحدوي. كما أن منطق الأمور يمنعنا من القبول بقيام دول على أساس سايكس بيكو وحدود التجزئة الاستعمارية بين الأقطار العربية، ناهيك عن تفكيك الأقطار العربية.

- المغالطة الثالثة:

يرفض أنصار "البوليزاريو" اتهامنا لجبهتهم بالعمالة للإمبريالية، كون منظمة الأمم المتحدة تصنف قضية الصحراء المغربية كقضية تصفية استعمار، وأن قرارات الأمم المتحدة تعترف بالجبهة كـ "ممثل شرعي ووحيد" للصحراويين.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

ويستند كاتب المقالة التي تهاجم موقف لائحة القومي العربي من انفصال الصحراء الغربية إلى اعتراف منظمة الأمم المتحدة بمنظمة "التحرير" الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني، ووجود ممثل لفلسطين بالأمم المتحدة، كدليل على جواز الاستعانة بالأمم المتحدة لنيل الحقوق، وإلا فإنه علينا أن نطعن في شرعية القضية الفلسطينية وفق رأي أنصار "البوليزاريو".

الرد:

القضية الفلسطينية قضية عادلة كونها قضية نضال عربي ضد احتلال صهيوني استيطاني، وهي تستمد مشروعيتها من الحق العربي التاريخي بأرض فلسطين، لا من أي شيء تقوله الأمم المتحدة أو غيرها. ولو افترضنا مثلاً أن فلسطين تحررت غداً وأصبحت جزءاً من الدولة السورية أو من إطار عربي أوسع، فإن ذلك يعد مشروعاً وحدوياً، ولا يعد احتلالاً، وبهذا يصبح توصيف السيادة السورية على أرض فلسطين بأنه "احتلال" ضرباً من ضروب العمالة، أما استشهاد الكاتب باعتراف الأمم المتحدة بمنظمة "التحرير" كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني فهذا استدلال عليه، لا له.

فالبندقية هي الممثل الشرعي والوحيد للفلسطينيين، أما منظمة "التحرير" بعد أن تحكمت بها حفنة من الخونة والمرزقة الذين تنازلوا عن أغلب أرض فلسطين لصالح الاحتلال، والذين ينسقون أمنياً مع الاحتلال ويسلمون المقاومين له، فهي منظمة عميلة للإمبريالية قطعاً، ولهذا مُنحت اعترافاً بـ "حصريّة" تمثيل الفلسطينيين، وهي بدعة اخترعها أنور السادات بجميع الأحوال في مؤتمر الرباط عام 1974 للتخلص من "عبء" القضية الفلسطينية تمهيداً للدخول في صلح منفرد مع العدو الصهيوني، ووجد النظام الرسمي العربي ضالته فيها في السياق ذاته.

- المغالطة الرابعة:

يحتج علينا الانفصاليون بمواقف بعض القوى التقدمية والثورية من "قضية" الصحراء المغربية (فنزويلا نموذجاً)، وبالعلاقة التي جمعت قادة جبهة "البوليزاريو" مع ياسر عرفات والحواري بومدين ومعمّر القذافي الذين ساهموا في توقيع اتفاق السلام والمصالحة مع موريتانيا سنة 1979 والذي انسحبت موريتانيا بموجبه من الصحراء المغربية.

الرد:

علاقة ياسر عرفات مع جبهة "البوليزاريو" لا يشرفها بل هي شبهة بحد ذاتها، ولن نتطرق لها. ما يستحق الرد هو استناد من يحتج علينا بشرعية انفصال الصحراء بقيام عدد من الأنظمة والقوى الوطنية التي لا نشك في نزاهتها بدعم قيام جمهورية صحراوية مقطّعة من المغرب.

يُعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال.

إن احترامنا لكل من الزعيمين الهواري بومدين والقذافي ومودتنا الكبيرة للرئيس نيكولاس مادورو وغيرهم من القامات الشامخة لا حدود له، ولسنا بصدد المزايدة على أحد ولكن هؤلاء الشرفاء بشر ولبسوا أنبياء، ويؤخذ من كلامهم ويرد، ولأننا نرفض النفاق فحقهم علينا أن نصدقهم النصيحة، بعضهم ناصر "البوليزاريو" من منطلق عدائه لرجعية وعمالة النظام المغربي وبعضهم انخدع بظاهر الخطاب الثوري المزيف للانفصاليين، فمتى أخطأوا كان لزاماً علينا أن نقدم النصيح، من دون أن نطعن في سلامة نواياهم.

أصحاب مشروع انفصال الصحراء المغربية يسعون لكسب تعاطف القوى الثورية فيدّعون أنهم حركة تحرر وطني، ويتشبهون بـ "جيفارا" و"هو شي منه"، وهم يريدون إقناع القوى المناهضة للهيمنة الأجنبية بأنهم يحملون أحلام الشعوب التواقة للتحرر من الاستعمار والرجعية ذاتها.

فليعلم جماعة "البوليزاريو" أن عليهم أن يتطهروا وأن يتوضأوا قبل ذكر سير الشرفاء، وربما عليهم أن يطلعوا على تاريخ حركات التحرر ومبادئها قبل التشبه بها.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

بعد أن قُسمت فيتنام إلى جنوب وشمال جراء اتفاقات جنيف لعام 1954، كان من المفترض أن يُعاد توحيدها بعد الانتخابات عام 1956، ولكن نظام "نحو دين ديم" الموالي للولايات المتحدة الأمريكية أُلّف الاتفاقات وأعلن من جانب واحد تكوين جمهورية فيتنام ذات السيادة، وشن حملة صارمة على المعارضة الشيوعية.

نتيجةً لذلك، اندلعت موجة احتجاجات تحولت إلى مقاومة عسكرية بقيادة الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام المعروفة بـ الفيت كونغ (Việt cộng) بدعم من حكومة فيتنام الشمالية بقيادة الزعيم "هو شي منه" الذي أمد المقاومين في الجنوب بالأسلحة والمستشارين العسكريين وكل ما يحتاجونه.

القائد الفيتنامي الكبير "هو شي منه" حمل مشروعاً وحدوياً وناضل في سبيل توحيد فيتنام وتحريرها وكذلك تقوم كل حركات التحرر الوطني في جوهرها على مبدأ تحرير الأرض من الغزاة وتوحيد المقسم.

إن مناهضة الهيمنة الإمبريالية تقتضي التصدي لمشاريعها وأدواتها، ولا شك في أن تقسيم الأوطان هي صنعة حذقتها الإمبريالية وتستخدمها بهدف إضعاف الكيانات ولضمان عدم نشأة كيانات قومية يقاومها، فحتى ولو كان الانفصاليون الصحراويون جادين في مناهضة الإمبريالية فإن جمهوريتهم المزعومة ستكون عاجزة عن الاستمرار من دون حماية، فكيف بإمكانية تبنيتها مشروعاً مناهضاً للإمبريالية!

تقر "البوليزاريو" بأن الصحراويين عرب، ولا يدعون بأنهم يتميزون بصفات إثنية أو قومية خاصة بهم تجعل منهم شعباً قائماً بذاته صاحب هوية تختلف عن هوية العرب المغاربة أو الموريتانيين، وإقرار الصحراويين بذلك يسحب البساط من تحت أقدام الانفصاليين. والنقطة، باختصار، هي أن حق تقرير المصير يكون للأمم، لا لأجزاء منها، والعرب أمة كاملة لها حق تقرير المصير، أما المشاريع الانفصالية فهي مشاريع تفكيك وتبعية للخارج، لا مشاريع "حق تقرير مصير".

الأراضي المغربية بما فيها الصحراء هي أرض عربية خالصة وملك لأبناء الأمة جيلاً بعد جيل، وليست ملكاً لملك المغرب، فالأرض باقية والشعب باقٍ والملوك والحكام فانون. وستضل الصحراء عربية مغربية ما دامت رغم أنف العملاء...

الأيدولوجية العربية المعاصرة*

ناجي علوش (1980)

حين انتهيت من قراءة كتاب عبد الله العروبي: الأيدولوجية العربية المعاصرة، كان لدي قرار بأن أكتب عنه. شعرت أن هذا من واجبي، وأن عليّ أن أعبر عن احترامي للمؤلف وللكتاب، وأن أعذر لأنني تأخرت عشر سنوات كاملة عن قراءة مؤلف كان يجب أن أقرأه عند صدوره بالعربية سنة 1970.

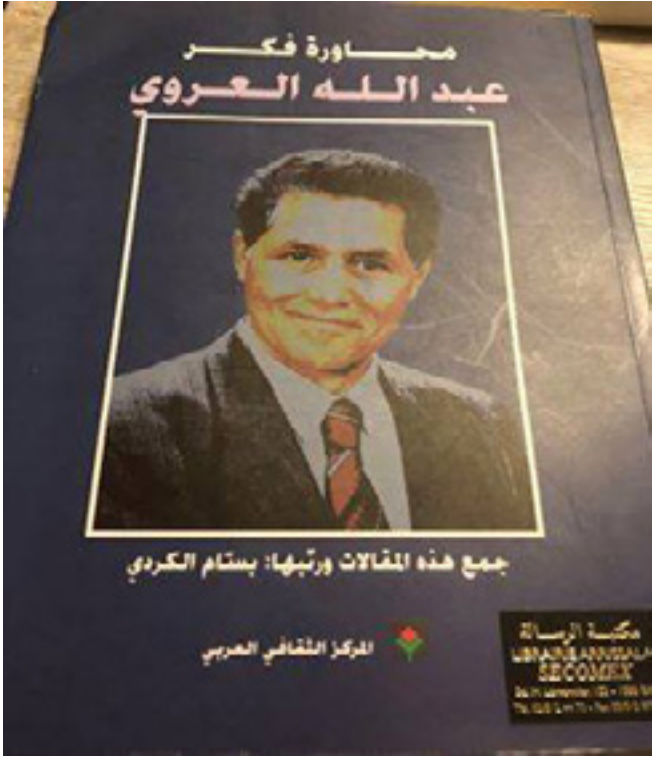
وهذه العجالة، ليست محاولة نقد، لأن كتاب العروبي يحتاج إلى دراسة شاملة معمقة، وإلى أكثر من قراءة، فهو يطرح العديد من القضايا الخطيرة، ويناقش العديد من المفاهيم، ويحسم في العديد من الأمور الكبيرة، ولذلك ما أريد الإشارة إليه ينحصر بالتالي:

1- إن الكتاب ينم عن ثقافة واسعة وجهود دؤوب، ذلك لأن المؤلف يقودنا عبر صفحات كتابه من التراث إلى فكرنا المعاصر ومن الفقه إلى الأدب، وهو يكشف عن معرفة واسعة بثقافتنا وبالثقافة الغربية. إنه لا يتكلم عن تراث لا يعرفه، كما يفعل معظم "متوارثي" هذه الأيام، ولا يعطي أحكاماً في قضايا لم يدرسها، كما يفعل معظم المتأدبين في وطننا. وهذه الثقافة الواسعة تمكّنه من رؤية العلاقة بين الماضي والحاضر، وبين التراث والواقع، وبين العمل والفشل...



لائحة القومي العربي

العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



2- إن المؤلف يجهد أن يكون علمياً، من دون مقدمات ومداخل، تتناول البدهي، ودون اقتباسات تزين الصفحات، فهو واثق من علمه ومعرفته، وهو يملك نهجاً يطبقه، ولا يشعر أنه بحاجة إلى العديد من العكاكيز لاكتشاف دربه، وهو هنا يعلم كل حملة العكاكيز أن الذي لا يدلّه علمه ومعرفته، لا تنفعه عكاكيزه.

3- ويقدم المؤلف حصيلة مكثفة، متجنباً الأسلوب الوصفي التقريري السائد. إنه يقدم حصيلة دسمة، ولكن في سطور محدودة، ومع ذلك فإنك تشعر وأنت تقرأه بالامتلاء، إنه أيضاً يعلم كتابنا درساً في الهضم والفهم، والقدرة على التعبير.

4- تتجلى في الكتاب روح نقدية نفاذة، وشمولية. إنها تتناول التراث كما تتناول الماركسية عندنا، وهي تتناول السياسيين كما تتناول الأدباء. إن المؤلف هنا لا يستخدم الأسلوب العربي المتداول، الذي يمكن أن يسمى أسلوب النقد الدعاوي، حيث يصبح النقد "تكتيكاً"، يهاجم الأضعف ويتملق الأقوى. وبالتالي فهو لا يفعل شيئاً، لأنه لا يجرؤ على الهجوم في جبهة ثانوية، أو حتى ثانوية جداً، ويقدم تنازلات مبدئية في قضايا مبدئية. إن عبد الله العروبي يقدم نقداً شاملاً، ولأنه نقد غير عبثي، ولا جانبي، ولا مزيداً، إنه نقد رجل عالم، يمحس القضايا ولا يهادن.

ومع ذلك فإن عبد الله العروبي لا يعطينا حلاً "سحرياً". إنه يفكر ويدعونا إلى التفكير، يكشف سلبيتنا في الفكر والممارسة، ويدعونا بطريقة غير مباشرة وغير خطابية إلى الفكر العلمي والعمل الجدي...

هل معنى ذلك أن عمله كامل؟ لا بالطبع. إنه عمل مكثف، وهو يلمس بعض القضايا لمساً... مثلاً، إنه لا يحاول أن يحلل التركيب الطبقي للمجتمع العربي، ويكتفي بالإشارة إلى "أن الأمر يتعلق بالأحرى بمجتمعات مغلقة متنافسة لا بطبقات متصارعة" (ص 120 - الطبعة الثالثة). هل الأمر كذلك فقط؟ وهل تكفي الإشارة العابرة للمغرب، دليلاً على التركيب الطبقي للمجتمع العربي؟ ألا يحتاج الأمر إلى دراسة المجتمع العربي كله؟

ثم إن المؤلف يقدم لنا صورة الشيخ والليبرالي والتقني؟ ويعطي أمثلة على ذلك: محمد عبده وأحمد لطفي السيد وسلامة موسى. ألم يكن الأجدر أن تُدرس المدارس الفكرية والسياسية، وليس الأفراد، وأن يُدرس الأدباء والمفكرون من خلال هذه المدارس...؟ هناك المدرسة الدينية، أو التيار الديني، ومحمد عبده أحد رموزه، وهناك التيار الديمقراطي وأحمد لطفي السيد أحد رموزه، وهناك التيار العلماني وسلامة موسى أحد رموزه. ثم لماذا أحمد لطفي السيد وسلامة موسى؟ أليست الإشارة لأديب إسحق وشبلي الشميل أدق؟ ثم، إذا أردنا أن نتحدث عن تيار تقني، أليست مدرسة المقتطف هي الممثل الأساسي لهذا التيار؟ وفوق هذا كله من هي القوى والأحزاب التي تمثل الشيخ والليبرالي والتقني؟ ما يجمعها؟ وما يفرقها؟ أليست كلها مقلدة، ومعنية بالنصوص، ومشدودة إلى "مثل"، وليس إلى حركة الواقع وصراعاته؟ ثم أليست كلها "جزئية"، تنفقد إلى الشمول، وحولاً ترى برقع عين عمشاء، وعاجزة تتمسك بعكاكيز؟ وخائفة تحاول تجنب خوض الصراع الفكري والسياسي بالجوء إلى تبني "قيم جاهزة"، الدين مرة، وفلسفة الثورة الديمقراطية البورجوازية مرة، وتراث الغرب الصناعي مرة، وهي لعجزها وجهلها وخوفها وشيخوختها تعارض الفكر بالأصالة، والدين بالعلم، والسماء بالأرض، والحركة بالثبات والتناقض بالوحدة... وهكذا.

وهي إذ تتصارع فلا تعكس حركة الواقع وهموم الناس، بل هموم شرائح محدودة ومعزولة ومغلقة، يرتبط كل منها بالآخر في الواقع، وفي مصدر وحيه، كما يقول العروبي، فالشيخ ترك فرصة حياة لليبرالي والتقني عندما أكد أن الإسلام يتسع لكل حضارة، والليبرالي والتقني لم يقطعاً مع الشيخ نهائياً، لأن الأول اعتبر أن ميدان عمله السلطة، وأن



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

هذا لا يصل إلى عقر دار الشيخ، لأن الشيخ معني بالله والدين والأوقاف، أما الثاني فاعتبر أن ميدان عمله بناء صناعة فقط، وهذا يمكن أن يتم من دون المساس بدور الشيخ. وإذا كان التقني قد أصرَّ على إلغاء الليبرالي، فإن الشيخ بشرّ بسلطة المستبد العادل، الذي يقود الإصلاح، ولكن التقني، عندما استبد بالسلطة ألغى الشيخ والليبرالي، سياسياً، وهكذا اندفعوا إلى معارضته.

قادت عملية المعارضة هذه إلى ثلاثة أمور:

الأول: أن يزداد الشيخ تزمناً، وأن يدعو إلى الحرب العوان على الفكر الغربي والدعارة والانحلال و...و... إن الشيخ اليوم ليس الإمام محمد عبده، ولا عبد الحميد الزهراوي ولا رشيد رضا... إنه الإخوان المسلمون والحزب الجمهوري الإسلامي وحزب الدعوة والسائرون في ركابهم من قوميين وماركسيي الأمس: وهؤلاء مترمتون، وضد كل الواقع، وكل همومه، لأن همهم الأكبر أن يفرضوا مدينة فاضلة إسلامية حتى النخاع، إنهم يحاولون أن يعارضوا كل سياسة، بسياسة تطرح ضرورة عودة العالم إلى الإمبراطوريات الدينية، الإمبراطورية الرومانية المسيحية، الإمبراطورية الإسلامية، وتبعاً لذلك إمبراطورية كونفوشيوس وبوذا إلخ.. فلا حلّ لمشاكل المسلمين إلا بالإسلام، ولا حلّ لمشاكل العالم إلا بالدين.

الثاني: أن يصبح الليبرالي رجعيًا، متعاوناً مع القوى الامبريالية والرجعية شبه العشائرية، لأنه لعجزه، ولأنه خارج الحركة التاريخية، أصرَّ أن يوجد من خلال قوى واقعية، وليس أمامه هنا إلا الإمبريالية العالمية عامة، والإمبريالية الأمريكية خاصة، والقوى العربية الرجعية. إن تلامذة أحمد لطفي السيد وحزب الوفد، ليسوا اليوم، كما كانوا حتى بداية الخمسينيات، فهم الآن لا يقدمون لنا، حتى فتات الأفكار التي كانوا يقدمونها إلى ذلك الحين... إنهم ضد القوى التي اضطهدهم وحسب، وهم خائفون ومترددون وهاربون، حتى من معركتهم.

الثالث: إن التقني لم يأت إلى السلطة، بل جاءت بدله قوى وأحزاب طامحة إلى بناء دولة قوية و"متحضرة"، وهذه القوى من البرجوازية الصغيرة الفلاحية متخلفة عموماً، تفتقد إلى الأهلية والكفاية عموماً، ولذلك رأت في السلطة قوة قمع فقط، وفي التحديث تكنولوجيا جاهزة فقط، ولم تر شيئاً آخر.

وقاد هذا إلى أن يرتبط التحديث بالقمع الهتمي، وبعملية تصنيع وتمدين مرتجلة وعشوائية ومفككة الأوصال، تحكمها مصالح شرائح محدودة، وتخلف الأجهزة وقصور التخطيط أو اندامه، والمشكلة الحقيقية تكمن في أن المصنَّع ليس صناعياً، والقيادة ليست قيادة عموماً، وهكذا يتحول التقني إلى متسلط مقفد غير مؤهل: تهمة المظاهر، وتأخذه العجلة، وتدفعه عقليته المتخلفة المحدودة إلى مصالحات مع الشيخ بما يمثله، ومع الرجعية والإمبريالية، لأنه يريد حماية نظامه، ونقل التقنية، وشراء المصانع الجاهزة، وقد لا تسعفه إمكانيات القطر الذي يحكمه، فيستدين، ويسقط في أشكال من التبعية الجديدة.

وهذا كله بحاجة إلى تمحيص وتفصيل، لأن علينا أن نفهم حركة الواقع، وحركة القوى المتصارعة، وأن نفهم تيارات الأفكار المتداولة في وطننا...

ولقد لمس العروبي عدداً من هذه القضايا فاتحاً أمامنا طريق البحث، ولكنه لم يتوسع أحياناً، ولم يتعمق أخرى، ومن الأكيد أن صدور الكتاب سنة 1970 بالعربية، يعني أنه كتبه قبل ذلك، ولقد أوضحت السنوات العشر الماضية كثيراً من الحقائق التي أشار إليها الكتاب إشارات مركزة أو سريعة.

وتبقى قضايا أخرى متعددة بحاجة إلى الحوار... ولكني لم أكتب هذه العجالة لأطرحها وأناقشها، فليس هذا هو هدفي، إن هدفي هنا لا يتعدى إشارات إلى كتاب يفتح أمامنا آفاقاً رحبة، وإلى مؤلف جاد يعرف عما يكتب جيداً، ويعالج القضايا التي يتناولها معالجة الطبيب الحنون الرؤوف، ولكن الذي لا يتوانى عن استخدام يده ومبضعه بدقة وبحكمة وبحزم.

ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يأخذ استحقيقه في الحياة الثقافية العربية مع أنه نشر وسط صراع فكري وسياسي وعلمي دام ومحموم وواسع... هل لأن الوعي كان غير حقيقي وغير أصيل، كما يقول عبد الله العروبي (ص 72)؟ هناك الشيء الكبير من ذلك.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

إلا أن هذا لا يمنع أن يدور النقاش مجدداً حول الكتاب، وإنني أدعو المثقفين العرب خاصة، والمناضلين العرب إلى دراسة الكتاب، وإلى مناقشته، أما قادة الأحزاب والقوى السياسية فلا حاجة لهم بذلك البتة لأنهم بغنى عن هذه المشقة، إن لم يكونوا بغنى عن العلم.

*كل الشكر للرفيق إبراهيم حرشاوي لأنه وجد هذه المقالة القيمة لناجي علوش وقام بنسخها، وقد ظهرت في كتاب عن المفكر عبدالله العروي للمركز الثقافي العربي، من إعداد بسام الكردي، في بيروت والدار البيضاء عام 2000، أما تقييم ناجي علوش لكتاب عبدالله العروي الشهير "الأيديولوجية العربية المعاصرة" فظهر في مجلة دراسات عربية في بيروت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1980.

الصفحة الثقافية: السينما في مواجهة الحرب

طالب جميل



يقول نيتشه: "لقد اخترعنا الفن لكي لا نموت من الحقيقة"، ويقول أرسطو: "الفن شكل من أشكال العلاج"، ولأجل هذا وذاك وجد وكان الفن عبر الأزمان وفي مختلف الأماكن عابراً للعصور والحضارات والقلوب والأفئدة.

الفن بكافة أشكاله وتعبيره يعتبر دواءً ووصفة للخروج من الضنك والتخلص من الهموم والتخفيف على النفس والانتصار على الشوائب والمنغصات التي تعبر حياة الإنسان بين الحين والآخر، فمن خلاله يكون الطريق إلى الفرح والسعادة وعبره يتم وأد الحزن والاستمتاع بالتحديق والتأمل والتحليل.

الموسيقى، الغناء، الرقص، السينما، المسرح، الرسم هي لغة الإبداع التي ينطبق بها الفن والتي تحفز التفكير وتنعش الروح وتزيد مساحة وأفق الجمال وتثير المتعة وتطرح الكثير من الأسئلة وتقضي على الحب وتلبي الشغف وتمنح الحياة مزيد من البهاء والألق.

وكما للفن رسالة إنسانية وأخلاقية فإن له رسالة وطنية وقومية من خلال تسليطه الضوء على قضايانا وشؤوننا، وله الدور الأساسي في التعبئة والحماس والتحريض والدفع باتجاه تبني تلك القضايا والدفاع عنها والتضحية من أجلها، وعبر الفن نخلد مناسباتنا الوطنية والقومية والأحداث التي صنعت لأمتنا التاريخ والحضارة والسيادة مثل الاستقلال والمعارك والحروب التي قدمت فيها التضحيات، فنخلد شهداءنا وأبطالنا والقادة الذين تصدروا مشاهد البطولة والفداء، ونتغنى بالوطن وجمال أرضه وطبيعته وصلابته وصموده في وجه التحديات والمؤامرات التي لا تتوقف.

في سورية استمرت الحياة خلال سنوات الحرب (منذ عام 2011 وحتى اليوم) واستمرت عجلة الفن بالمسير واستمر الحلم والشغف والحب، ولم تتوقف السينما السورية عن العمل من خلال المؤسسة العامة للسينما التابعة لوزارة الثقافة، ورغم ظروف الحرب وتداعياتها وقسوة الأيام التي مرت على المواطن السوري والدولة السورية إلا أن قنديل السينما ظل مضيئاً وظل يقاوم ويصارع البقاء إلى أن صمد وانتصر.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

الحديث هنا عن إنتاج أعمال سينمائية برعاية الدولة، وهي نفسها الدولة التي واجهت الحرب والمؤامرة الكبرى عبر جيشها وأجهزتها العسكرية وعبر دبلوماسيتها وإعلامها وعبر كل مواطن فيها مؤمن بترابها وأرضها وحققها في الحياة والدفاع عن تاريخها وحضارتها التي كانت لها الفضل على كل شعوب العالم.

رغم الضغط الكبير التي تعرضت له الدولة وتبدل الأولويات وشح الإمكانيات وتوقف الإنتاج في مختلف القطاعات وفقدان الدولة لأراضٍ ومساحاتٍ كبيرةٍ لسنوات عديدة خلال الحرب، إلا أن الإيمان بأهمية العمل التوعوي والثقافي لم يتبدل، فاستمرت الدولة بدعم وتمويل مؤسسة السينما وحرصت على أن لا يتوقف هذا النشاط لما له من أهمية وتأثير في دعم جهود الدولة في محاربة القوى المعادية وفي نبذ التطرف والإرهاب ومحاربة الحركات الانفصالية التي تعمل على تفتيت وإضعاف الدولة.

ولأن "الثقافة تبدأ حين ينتهي كل شيء"، كما يقول الكاتب الإيرلندي برنارد شو، فقد دخلت مؤسسة السينما الحرب مع باقي مؤسسات الدولة وصارت تنتج كل عام حوالي خمسة أفلام سينمائية طويلة بعد أن كانت تنتج قبل الحرب فيلمين على الأكثر، مع حفاظها على مستوى جيد ومقنع من الجودة والمتعة والتشويق.

أنتجت المؤسسة أفلاماً مهمةً وكانت المادة الرئيسية لأغلب تلك الأفلام هي الحرب، وقُدمت تلك الأفلام بجهود وسواعد مخرجين وممثلين وفنيين وكوادر سورية ظلت تخوض معركتها في الدفاع عن بلدها حتى آخر رمق، وتم تصوير بعض مشاهد الأفلام تحت القصف وأصوات الرصاص والقنابل.

ورغم الحصار الشديد الذي تعرضت له سورية بعد الأزمة والمقاطعة التي تعرضت لها الأعمال الفنية السورية، سينمائية كانت أم درامية، إلا أن بعض الأفلام تسللت لبعض التظاهرات والمهرجانات العربية والعالمية وحقق حضوراً مميزاً وحصدت بعض الجوائز التقديرية.

أفلامٌ مثل (رد القضاء، فانية وتبتدد، رجل الثورة، دم النخيل) للمخرج نجدة أنرور أنتجت خلال تلك الفترة وكانت معنية بشكل مباشر بالحديث عن الحرب ودور الجماعات الإرهابية والتكفيرية ومنظمات التمويل الأجنبي في تخريب سورية وإثارة الفتنة المذهبية فيها وقتل الشعب السوري وتهجيرها.

أما أفلام المخرج باسل الخطيب مثل (الاعتراف، دمشق حلب، سوريون، مريم، الأب، الأم) فكانت الحرب هي الفكرة الأساسية فيها بادوات تعبير مختلفة وبقصص لا تتشابه من حيث الشكل والإطار العام لكنها تقترب من بعضها البعض في محطات كثيرة، استعرض من خلالها بعض المراحل التاريخية التي مرت بها سورية والمنطقة العربية.

وكان للمخرج جود سعيد نصيبٌ من بعض الأفلام التي أنتجتها المؤسسة خلال الحرب مثل (مطر حمص، بانتظار الخريف، درب السماء، ورجل وثلاثة أيام) وقد عرجت كثيراً على الأزمة والحرب وتأثيراتها المباشرة نفسياً ومعيشياً على حياة المواطن السوري.

أما المخرج عبد اللطيف عبد الحميد فلم يغيب عن المشهد خلال الحرب، فقدم بعض الأفلام مثل (العاشق، طريق النحل، أنا وأنتِ وأمي وأبي، عزف منفرد) التي لامست هموم ومعاناة الشعب السوري خلال سنوات الحرب، وهي لا تخلو من السخرية اللاذعة من واقع الحرب عبر بعض المشاهد الطريفة.

كذلك لم يخلُ مشهد الحرب من تقديم بعض التجارب السينمائية المهمة واللافتة مثل فيلم (ماورد) للمخرج أحمد ابراهيم أحمد وفيلم (أمنية) الذي أخرجه الفنان أيمن زيدان وكان عملاً مؤثراً قدم من خلاله قصة إنسانية لامرأة عانت من ويلات الحرب وتبعاتها نتيجة إصابة ابنها بشللٍ أثناء قيامه بواجبه في الدفاع عن بلده.

إن استمرار عجلة الإنتاج في مختلف القطاعات كان تحدياً كبيراً للإنسان السوري وإن دل على شيء إنما يدل على أن إرادة الحياة وغريزة البقاء وحب الأرض والانتماء هي مفاهيمٌ أساسيةٌ وأدواتٌ مهمةٌ يتوجب استثمارها في المعركة والإيمان بها والدفاع عنها كي ترسو سفينة الوطن بأمان وتتجو من الفخ الذي نصب لها من قبل قوى الشر والظلام وأعداء الأمة.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

في الفن ومن خلاله نحارب التطرف وقسوته، ونكافح الجهل ونعلي من شأن الأرض ونشدو للوطن وندعو للوحدة والتكاتف والوقوف صفاً واحداً في وجه الأعداء وللوقوف مع أي جزء من أمتنا العربية يتعرض للظلم والاعتداء، ونترك رسالتنا للأجيال القادمة أن أرضنا ودماء شهدائنا ومقدساتنا ثوابت لا تقبل المساومة أو البيع.

قصيدة العدد:

سليمان العيسى، شاعر الإسكندرون العربي السوري المحتل، عن عشق اليمن
أمشي وتناين*..

قال شاعرنا العربي القديم:
«لا بد من صنعا، وإن طال السفر...»

ماذا من الشهقة الحمراء أختزن؟
أمشي وتناين يا صنعا، يا عدن
تقصّف العمر في جفني، وفي شفتي
وما تزال وراء الدمعة اليمن
أمشي وتناين... هل كان الهوى عبثاً
وهل تلازم في الميث والكفن؟
أمشي وتناين... يا للحلم أعصره
شعراً، ويعصرني يأساً، وأحتضن
تبارك الحزن... يذكي جمرتي أبداً
إذا انتهى بالرماد اليأس والحزن
ماذا من الشّهقاتِ الحمرِ قد تركتُ
لي الدروب... ومن حلوا ومن طعنوا؟
ماذا؟ ألفتُ السرابَ المرّ في حدقي
وما كفرتُ... تردّي الكفر من جبنوا
تساقطوا في البريق المسخ واتسّخوا
بالكبرياء... وفي تمزيقك ارتهنوا
لننفضن تراب القبر عن شفقي
للبائسين يغطي الأرض يا يمن
قيامه الباصقين الدم قد أرفقت
هياً انفخي... ببديك الصور يا عدن
هياً انفخي... ما أثينا الأرض مع غدم
هنا بعيني يوماً أبصر الزمن
الدهر نحن صنعنا أبجديته
في كلّ وارفة منه لنا فنن



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



لا أكذبُ الفلكَ الدَّوَارَ... كاسفةٌ
شمسي... وليسَ بَماحِ ضوءِها الدُرُ
يا حافري قَبْرِنَا، واللَّيْلُ ملكهُمُ
بينَ المحيطينَ نَعشُ ليسَ يندفنُ

أَمْشي... وتَنأينَ... ما جَدَّفتُ بالإسراءِ
لا بدَّ... لا بدَّ يا صنعاؤُ منَ صنعاؤُ
صنعاؤُ... يا كبوةَ الأيامِ
يا حلوةَ القَمَمِ الخرساءِ والأنسامِ
يا دَمعةَ الضوئِ في التاريخِ والأرحامِ
”مليحةٌ... عاشقاها السُّلُّ والجربُ“
قالَ ابنُها...

صَفَقْتُ للكلمةِ العربُ
لا تَغْضِبي لم يَكُنْ شَطُّ بلا أنواءِ
لم يَحِ قَلْبُ بلا بلوى ولا غَمَاءِ
وما عرفتُ بلاداً قَطُّ يا صنعاؤُ
تَنزَلْتُ جَنَّةَ خُضراءِ...
من السماءِ... تَدَلَّتْ جَنَّةَ خُضراءِ
ولم تَمَرَّ بها آةٌ، ولا بأساءُ
”مليحةٌ عاشقاها السُّلُّ والجربُ“
أَحْبُها... تلكَ أَرْضِي... يَنْتَهِي العَطْبُ
يوماً... وَيَنْشِقُّ عن ثاراته الكَفَنُ
يَنْشِقُّ عن لَحْدِهِ المَوْوُودُ يا عَدَنُ
تَجري الرياحُ... بما تَخْطُ السُفُنُ

لم أَعْرِفِ الأحْجِياءَ الزَّرَقَ في قَلَمِي
اسمُ الشَّقَاءِ الذي أَقْتَاتُهُ الوَطَنُ
أريدُها بوضوحِ الخبزِ أَغْنِيَتِي
والجوعِ، والخنجرِ المغروزِ في رَنَّتِي
أريدُها...

وتَدُقُّ الرِّيحُ نافذتي
تَلْفُنِي بَسِياطِ السَّحَرِ
من كُلِّ فَجٍّ، تَلْفُ العَمْرُ



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد



لائحة القومى العربى

من أنت؟ طفلٌ بلا مأوى
صوتٌ بلا جدوى
وعدٌ... ولا واعدٌ
عزمٌ... ولا ساعدٌ
من أنت؟ تضربُ في ببداءٍ من أزلٍ
قالوا لنا... ماتَ فيها الضرعُ واللبنُ
قالوا، وأقسمَ حاديهُم ومطربُهُم
هذي الملايينُ... لا روحٌ ولا بدنُ
ماتتْ على القلمِ الصعلوكِ، وانطلقتْ
بشائرُ الحقِّ... غطى الساحةَ العفنُ
أنتَ اليتيمُ... على أطرافِ مائدةٍ
شتمَ العروبةَ فيها الفنُّ واللسنُ
نُجنتُ في عتَماتِ الزورِ أغنيةً
تقول: نحنُ هنا
تصرُّ: نحنُ هنا
نُسقى ونُطعمُ أغلالاً... ونحنُ هنا
نُجنتُ في عتَماتِ الزورِ كلُّ يدٍ
تمتدُّ. يخضرُّ في أحلامِها عُصنُ
من أنت؟ يا رممَ التاريخِ في وتري
ليسقطنَ غداً عن جُنتي الكفنُ
لأبلغنكَ يا شطَّ الهوى رهقاً
تعرفنَ دمهَ الأغوارِ والقننُ
لأحملنَ بقايا اللحمِ في قدَمي
والتقي بابك المرصودَ يا يمنُ

عفو العمود... وعفو الظلِّ، قافيةً
تدقُّ صدري، يداها القهرُ والمحنُ
لم أعرفِ الأحجياتِ السودَ يا بلدي
ولم تأله في أجفاني الوسنُ
ما كنتُ رمزاً... دعوني عارياً وجعي
دمُ القتيلِ بأعلى الرمزِ يمتهنُ
الخنجرانِ بصدري... كانَ نزفُهُما
عُمري أجبُ به طفلاً وأضطغنُ



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

الخنجران.. ويافا مثل حارتنا
خلف السلاسل، لا أهل ولا سكن
بعيدة عتبات الحلم.. يا وطني
صحراء يلهث فيها الفكر والظن
بعيدة.. أتقرأها بما تركت
لي السنون... وما أبقى لي الزمن
أرتد طفلاً، أدق الصخر منتظراً
صحوّ الينابيع، يبكي قبضتي الوهن

إني أصرُّ على رؤيا تمزقني
كلُّ القرايين في نيرانها امتحنوا
عفو الغناء، وعفو الشعر، أعشقه
هذا العناد... معاً في النزع نقترن

*عن صنعاء، عن اليمن الجريح أبداً، عن اللواء، عن يافا، وعن فلسطين، عن الشام وعروبة نولد من رحمها،
يبدع سليمان العيسى، الشاعر السوري من أقصى الشمال العربي، ذائباً في عشق الجنوب، تاركاً إرثاً لا يمحي
من المؤلفات والقصائد التي ما زالت الأجيال ترددها حتى يومنا.

شاعر البعث من مواليد اللواء السليب عام 1921، معروف بقصائده الوطنية والقومية وشعر الطفولة.



العدد رقم (70) صدر في 1 تموز عام 2020 للميلاد

رسم العدد: ذكرى ثورة 30 يونيو في مصر



انتهى العدد